20 رواية

ذهب مع الريح



مارجريت ميتشل

مكتبة النافذة

ذهب مع الريح

تأليف

مارجريت ميتشل

ترجمة

خالد عبد اللاه

الناشر

مكتبة النافذة

ذهب مع الريح

ترجمة: خالد عبد اللاه

الطبعة الأولى: 2010

رقم الإيداع: 2009/22817

الترقيم الدولي: 2 _ 216 _ 436 _ 977 _ 978

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

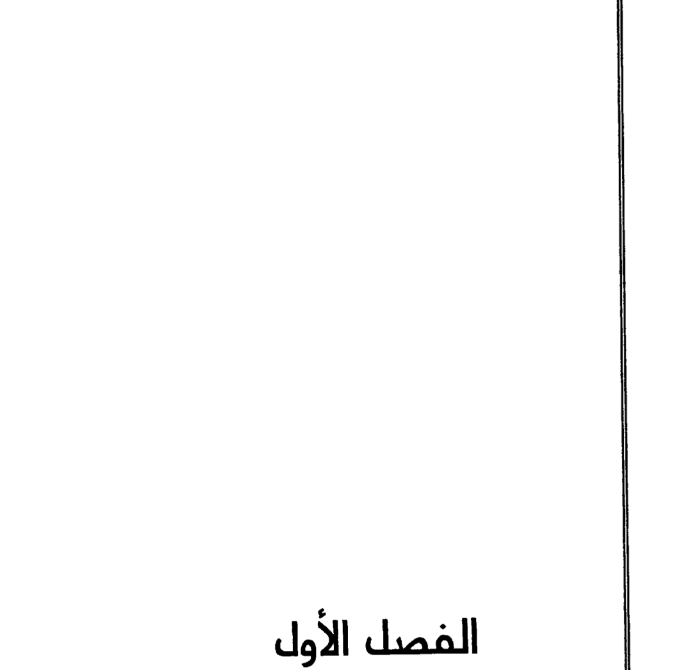
ميتشل مارجريت
(١٩٠٠ ـ ١٩٤٩)

فى إحدى ولايات جورجيا الجنوبية ـ أتلانتا ـ ولدت ميتشل مارجريت لأب محام ورئيس جمعية أتلانتا التاريخية، ولما كان جميع أفراد أسرتها من المهتمين بالتاريخ فلقد نشأت بين حكايات وأساطير الحروب.

بدأت حياتها العملية فى صحيفة أتلانتك جورنال، وتزوجت فى ١٩٢٥ من جون مارش، وبدأت رحلتها فى الكتابة منذ ذلك الوقت ولعشر سنوات بعد الزواج كانت قد انتهت من كتابة كل القصص التى سمعتها عن الحرب الأهلية فى روايتها (ذهب مع الريح) التى خرجت إلى النور فى ١٩٣٦ لتفوز بجائزة بوليتزر الأدبية.

وقد ترجمت هذه الرواية إلى ١٨ لغة وبيع منها أكثر من عشرة ملايين نسخة، وتحولت إلى فيلم سينمائى لقى نجاحا كبيرا وحصد ٨ جوائز أوسكار سنة ١٩٣٩.

وكانت وفاتها سنة ١٩٤٩ فى حادث سير.



الفصل الأول

سكارلت أوهارا لم تكن على قدر كبير من ولكن هؤلاء الذين فتنوا بسحرها - كالتوأم تارلتون - نادرا ما لاحظا ذلك، فملامحها الأرستقراطية الفرنسية التى ورثتها عن أمها، وعمق الوجه الذى ورثته عن والدها الأيرلندى ذى الوجه النضر، كل هذا كان كافيا لأن يغطى على أى شىء آخر.

فكان وجهها جذابا دقيق الملامح وعيناها خضراوان ورموشها وحاجباها سودٌ تظهر بياض بشرتها.

وفى صباح ذلك اليوم - من أبريل ١٨٦١ - جلست مع ستيوارت، وبرانت تارلتون - التوأم - فى ظل شرفة أبيها فى مزرعته التى يطلق عليها (تارا).. وكانت ترتدى فى ذلك الصباح ثوبا أخضر مبهجا أبرز خصرها النحيل وعينيها الخضراوين.. وبجوارها جلس التوأم يتبادلون أطراف الحديث المخلوط بالضحك.

والأخوان تارلتون فى التاسعة عشرة من عمرهما.. طويلا القامة قويا البنية سمر الوجه من لفحات الشمس وقد ارتديا بزتين متشابهتين -

زرق ـ وكأنهما يؤكدان على توأمتهما!

وهم هكذا ـ دوما ـ مشغولون بالهواء الطلق ولم يزعجوا أنفسهم يوما (بتفاهات) الكتب!

ولكن فى هذا المكان ـ جورجيا الشمالية ـ لم يكن من العيب ألا يكون الفتى قد نال قسطه من العلم أو الثقافة، وهذا بشرط أن يكون ماهرا فى الأشياء المفيدة مثل زراعة القطن وركوب الخيل والرماية والرقص ولباقة معاملة السيدات والشرب بأناقة.

وكان التوأم بارعا فى هذه الأشياء وهى البراعة نفسها فى عدم فهم أى شىء بين دفتى كتاب.

وعلى الرغم من أن عائلتهما تملك الكثير من المال والخدم والعبيد ـ أكثر مما لدى أية عائلة أخرى ـ إلا أن معرفتهما بقواعد اللغة كانت أقل مما يعرفه أكثر الشباب فقرا فى المقاطعة.

وكان الأخوان قد تم طردهما لتوهما من جامعة جورجيا، وهى رابع جامعة تتخلص منهما خلال عامين، وفى هذا الوقت كان توم وبويد ـ الأخوان الأكبر ـ قد عادا معهما إلى البيت، وقد اعتبر التوأم مسألة طردهما الأخير مزحة يتندران بها وشاركتهما سكارلت المزاح فيها، وهى بدورها كانت من الكارهين للكتب فلم تفتح واحدا منها منذ أن تركت أكاديمية فايتيفيل فى العام السابق.

وكانت تقول لهما:

ـ أعلم أنكما لا تعبئان بطردكما، ولا حتى تـوم، ولكـن هـل بويـد كذلك؟ فأنا أراه منكبا على الدراسة ومصمما على نيل الشهادة؟!

فأجابها برانت بلا مبالاة:

ـ يمكنـه أن يقـرأ كتـب القـانون فـى مكتـب القاضـى بارمـالى فـى فايتيفيل.. ثم.. المسألة ليست ذات أهمية.. فعلـى أيـة حـال كـان يجـب علينا أن نعود إلى البيت قبل نهاية الفصل الدراسى وها قد عدنا.

فسألته وهى تقطب حاجبيها:

ـ ولماذا؟

ـ الحرب أيتها الساذجة، الحرب التى ستنشب فى أى يوم.

وقالت سكارليت التى كانت قد ملت حديث الحرب:

ـ أنت تعلم أنه لن تقع أيـة حـروب.. مجـرد كـلام.. آشـلى وايلكـز ووالده قالا لأبى فى الأسبوع الماضى إن مندوبينا فى واشنطن يعملـون على قدم وساق للتوصل مع لينكولن إلى حل حول الدولـة الاتحاديـة.. ومهما يكن.. فإن الشماليين اليانكى يخافون منا بشدة ولا يجرأون علـى مجرد التفكير فى مواجهتنا.

وقال سيتوارت الذى كانت آثار الضحك باقية على وجهه:

ـ عزيزتى الحرب آتية لا محالـة.. صحيح أن الـشماليين يخـافون منـا ولكن بعد الضرب الذى أخذوه فى قلعة سونتر قبل يومين فإن علـيهم أن يحاربوا وإلا عُرفوا أمام العالم كله بالجبناء المهزومين.

فقالت سكارليت بغضب وهى تشهر سبابتها:

- إذا تكلمت عن الحرب مرة أخرى فسوف أدخل المنزل وأصفق الباب ورائى.

وكانت تعنى ما تقول، فهى لا تتحمل أى حديث لا يكون موضوعه خاصا بها، وبدورهما فلم ينزعجا من طلبها، بل ربما رفع هذا من شأنها فى نظرهما، فالحرب هى عمل الرجال لا النساء، وعدم اهتمامها بالحرب دليل على اهتمامها بكونها أنثى.

وبعد لحظة صمت أقرا فيها - ضمنيا - عدم الحديث عن الحرب، قالت:

- وماذا قالت والدتكما عن طردكما من الجامعة مرة أخرى؟

فتولى ستيورات الإجابة بقوله:

- لم تتح لها الفرصة لقول شىء حتى الآن، فلقد غادرنا المنزل مع توم فى الصباح قبل أن تستيقظ، وفى الليلة السابقة عندما عدنا كانت مشغولة فى الإسطبل، وبمجرد أن رأتنا صاحت فينا...

وأكمل مقلدا لهجتها:

- ما الذى تفعلونه هنا، اخرجوا.. اخرجوا.. الحصان عصبى ولا أريد أى إزعاج.. وسأتحدث معكم فى الصباح.

وضحكت سكارليت وأردف:

- فذهبنا إلى الفراش ونهضنا هذا الصباح قبل أن تستيقظ وتركنا لها

لويد ليواجهها بمفرده.

وسألته سكارليت بفضول:

ـ هل تنوى والدتك أن تمتطى الحصان الجديد غدا إلى حفلة الشواء التى ستقيمها عائلة وايكلز؟

مط ستيوارت شفتيه وقال كمن لا يكترث للأمر:

ـ إنها ترغب فى ذلك، ولكنى سمعت والدى يتحدث عن خطورة الحصان.

فتنهدت سكارليت وقالت:

ـ آمل ألا تمطر السماء غدا!

فغمغم ستيوارت:

ـ ستكون السماء صافية غدا.

وران الصمت وراحوا ينظرون إلى الأفق عبر الفدادين التى لا نهاية لها من أراضى القطن الخاصة بجيرالد أوهارا.

وقطع شرودهم دبيب الحوافر وصليل القيود وأصوات العبيد والعمال العائدون من الحقول.. والتفتوا إلى المنزل على صوت والدة سكارليت ـ صوت ناعم للسيدة إيلين أوهارا ـ وهى تنادى الخادمة الزنجية الصغيرة.. وكانوا يعرفون أن هذا هو وقت توزيع حصص الطعام على العائدين من العمل.

وقال برنت:

- سكارليت.. بخصوص الغد.. يجب أن نحصل على قسط وافر من الرقص غدا ليلا.. أنت لم تعدى أحدا بالرقص بعد.. أليس كذلك؟

وقبل أن تجيب قال ستيوارت:

- إذا قررت الرقص معنا سنطلعك على سر.

فصاحت سكارليت بحماسة:

- سر.. ما هو؟

وتراجع فى مقعده وقال باسما:

- الآنسة بيتى عمة تشارلز، وميلانى هاملتون، التى تعيش فى أتلانتا أخبرتنا أنه سيعلن فى حفل الرقص خبر خطوبة.

فقالت سكارليت وقد خاب أملها فى معرفة شيء مثير:

- آه إننى أعرف بأمر هذه الخطوبة.. إنه ذلك الأبله ابن أخيها تشارلز هاملتون وهونى وايلكز.

- معلوماتك خاطئة.. إنها خطوبة آشلى إلى الآنسة ميلانى، شقيقة شارلى.

وانتظرا منها رد فعل حماسى، ولكنها تجمدت وشحب وجهها، وبسرعة تمالكت نفسها وهمهمت:

- أوه هذا جميل!

وقال ستيورات وهو يضم يديه:

ـ والآن بعد أخبرناك بالسر.. أظن أنه يتوجب عليك أن تجعلينا نتناول العشاء معك.

فقالت كالمنومة:

ـ أكيد.. أكيد.

ـ وجميع رقصات الفالس.

ـ آه.. كلها.

فهتف ستيوارت بحماس:

ـ ما أروعك يا سكارليت.. أراهن أن كل الشباب غدا سيجن جنونهم.

وقال برانت وهو يتقدم بنصفه الأعلى:

ـ وأيضا ابق معنا فى حفل الشواء الصباحية.

قالت وهو تغتصب ابتسامة:

ـ بالطبع.

وتبادل الأخوان نظرات فرح لا تخلو من استنكار، فعلى الرغم من كونهما الأقرب إلى سكارليت إلا أنهما لم يحصلا من قبل على كمية الوعود هذه..

وكان هذا وحده كفيلا بأن يعوضهما عن طردهما من الجامعة!

بعد قليل تقدم جيمس نحو الأخوين ـ الخادم الزنجى الطويل وهو فى مثل عمرهما وصديق طفولتهما ـ فنهضا وانحنيا تحية لسكارليت

وصافحاها وقال ستيورات:

ـ سنكون فى انتظارك من الصباح الباكر فى منزل آل ويكر.

* * *

وفى الطريق توقف ستيوارت وقال بتساؤل:

ـ غريبة.. كانت مسرورة جدا فى البداية ولكن فجأة أصبحت هادئة قليلة الكلام وكأن صداعا قد أصابها.

فقال برنت بشىء من الضيق:

ـ أجل لاحظت ذلك.. ترى ما الذى أزعجها؟

فمط ستيوارت شفتيه وهز كتفيه وقال:

ـ لا أعلم.. هل تظن أننا قلنا شيئا أغضبها دون أن ندرى؟!

ـ لا أعتقد.. فوق أن سكارليت حين تغضب منا فإنها تقول مباشرة.

والتفت برنت إلى الخادم وقال:

ـ هل سمعت حديثنا مع الآنسة سكارليت؟

فأجاب الخادم بسرعة:

ـ كلا يا سيدى.. كيف لى أن أتجسس على الأسياد البيض؟!

ـ أنتم الزنوج تسمعون وتعرفون كل شىء وتدعون الجهل.. لقد رأيتك جالسا بقرب حوض الياسمين قرب الحائط.

وأراد الزنجى أن يخرج من هذا الموقف فاضطر أن يقول:

- لم ألاحظ أنها غضبت منكما فى شىء.. على العكس كنت أراها مسرورة من حديثها معكما.. ولكن حين بدأتما الحديث عن السيد آشلى والآنسة ميلانى بدا عليها أنها تغيرت.

وتبادل الأخوان النظر، وبدا عليهما عدم الفهم وقال ستيوارت:

- جيمس على حق.. إنها تغيرت عند هذا الحد ولكنى لا أفهم السبب.. يا إلهى إن آشلى ليس أكثر من مجرد صديق وقطعا ليست مغرمة به!

ووقفا لبرهة يتفكران فى الأمر قبل أن يواصلا المسير.. لقد كان ستيوارت - حتى الصيف الماضى - صديقا إنديا وايلكز بموافقة العائلتين وسكان المقاطعة.. أما برنت فلم يرتح لإنديا وفضل عليها اصطحاب أخيه وكان هذا الموضوع هو أول خلاف بينهما على شىء.. وخلال الصيف الماضى (اكتشفا) سكارليت فانكبا عليها بشدة، كانت فى البدء صديقتهما المفضلة أيام الطفولة فهى تهوى ما يهويان وتحب ما يحبان، وكانت دهشتهما أنهما رأياها - فجأة - أنثى ناضجة.

وسكارليت نفسها لا تحب أن ترى شابا آخر يحب فتاة أخرى.. والآن كلا الأخوين يحبها والخاسر منهما لا يعرف ماذا سيفعل - هذا فى حال أن قبلت سكارليت بالزواج من أحدهما - ورغم هذا فلم يفكر الأخوين فى المستقبل معها.. فكلاهما لا يحسد الآخر ويعيشان فقط لحظتهما.

وهذا الوضع أثار حفيظة الأم التى لم تكن تروق لها سكارليت، على عكس إنديا التى تراها فتاة ناضجة.

ولكن ما يفرق سكارليت عن إنديا أن الأولى متألقة متغيرة متجددة على عكس الأخرى التى تلزم نهجا واحدا من الحياة لا يتغير.

* * *

وقال ستيوارت لأخيه:

ـ ما رأيك فى أن نعبر المستنقع حتى منزل إيبل وندر لنخبره أننا الأربعة قد عدنا وأننا مستعدون للتدريب.

وكان جيش الفرسان قد تشكل منذ ثلاثة أشهر، ولم يكن ثمة أحد من المقاطعة ذو خبرة سوى القليل من المحاربين القدماء الذين خاضوا حروب المكسيك.. ورغم أن أهل المقاطعة يحبون أبناء آل تارلتون وفونتين إلا أن هذا الحب لم يكن دافعا لترشيحهم فى الانتخابات بسبب إفراط أبناء آل تارلتون فى الشراب وميل الآخرين ـ آل فونتين ـ للإجرام.. أما آشلى وايلكز فلقد تم اختياره كضابط لأنه كان أمهر فارس فى المقاطعة ولصفاته الجسدية المتميزة.

واعتاد الجيش على أن يتجمع مرتين فى جونسبورو للتدريب والصلاة، وكان الأخوان قلقين ومتحمسين لمحاربة الشماليين.

* * *

وما إن غادر الأخوان حتى ألقت سكارليت بنفسها فى مقعدها وقد تهالكت من صدمة خبر الزواج.. وراحت تفكر.. آشلى سيتزوج ميلانى هاملتون.. إنها كارثة ولا يمكن أن يكون هذا صحيحا.. آشلى يحبها هى ولا يمكن أن يحب ميلانى ولا غير ميلانى.

وسمعت خطوات تقترب.. المربية مامى.. سوداء من أصل أفريقى وتعتبر نفسها جزءا من آل أوهارا.. ورغم أنها سوداء إلا أنها كانت لا تقل عن أسيادها خلقا وسلوكا واعتزازا بالنفس.

ـ هل ذهبا.. ولماذا لم تبقيهما على العشاء.. أين أخلاقك وتربيتك يا آنسة سكارليت؟!

ـ مامى لقد تعبت من أحاديث الحرب ولا يمكن أن أستمع للمزيد منها على العشاء.

ـ الجو بدأ يبرد وأنت لا ترتدين ملابس ثقيلة.. هيا إلى الداخل.

ـ إننى أريد الجلوس ومشاهدة الغروب.. رجاء أحضرى لى شالى...

ـ ولكن...

ـ من فضلك يا مامى.. فأنا أريد البقاء حتى يأتى أبى.

ـ صوتك يبدو وكأنه قد أصيب بالزكام.

وقالت سكارليت بشىء من نفاد الصبر:

ـ أنا بخير.. رجاء أحضرى الشال.

وكانت تريد أن تهرب من نظرات مامى حتى تترك لمشاعرها العنان فنهضت وقد قررت التوجه إلى طريق تارا الذى سيعود منه والدها من مزرعة آل وايلكز حيث ذهب لشراء الزنجية جيلسى - زوجة خادمه بورك.

بمجرد وصولها إلى الطريق جلست أسفل شجرة وقد احتقن وجهها وراحت تلهث.. ومر الوقت طويلا - عليها - ولم يأت.. وأخذت ترقب الطريق عن بعد دون جديد وقد عصفت بها الهواجس.

- لماذا لم يأت بعد.. ما الذى حدث.. لا أصدق.. لا أصدق؟!

وزاد نبضها بشدة.. وأخيرا سمعت وقع الحوافر الذى تمنته.. وراحت تنظر إلى أبيها الذى يقترب بحب.. وبلغ جيرالد السياج.. وراح يعدل شعره وملابسه وربطة عنقه فأفلتت ضحكة متعمدة لينتبه فانتبه.. فترجل عن جواده ومشى بصعوبة بعد أن تصلبت قدماه، واقترب منها وقال بمداعبة وهو يقرص خدها الأيمن:

- لماذا تتجسس علىّ الآنسة؟!

كانت العلاقة بين سكارليت وأبيها علاقة صداقة، وكانت بينهما أسرار لا يعلمها أحد ولا حتى والدتها..

ونظرت لوالدها بابتسام فأردف:

- ما الذى تفعلينه هنا يا آنسة؟

- كنت فى انتظارك ولم أكن أعلم أنك ستتأخر هكذا.. هل اشتريت

ديلسى.

ـ لقد دفعت فيها ثمنا باهظا.. وأحضرت معها أيضا ابنتها تريسى.

ـ وكيف حال الجميع فى المزرعة.. هل تحدثوا عن حفل الشواء الذى سيقام غدا؟

ـ أوه أكيد.. إن تلك الآنسة.. ممم ما اسمها.. تلك الفتاة النحيلة ابنة عمة آشلى.. آه تذكرت.. ميلانى.. ميلانى هاملتون.. لقد حضرت بصحبة شقيقها تشارلز من أتلانتا.. لقد بدت فى غاية الجمال والهدوء.

وشعرت سكارليت أن قلبها يهوى وهى تسمع.. لقد كانت تتمنى لو تسمع تكذيبا لما قاله الأخوان.. وسألته وهى تغتصب ابتسامة:

ـ وآشلى كان هناك؟

ـ أجل كان هناك.

وربت على كتفها وبدأ فى التحرك نحو المنزل وقال دون أن يستدير:

ـ إذا كان هذا هو سبب قدومك فلماذا لم تسألينى مباشرة..

والتفت وتابع:

ـ كان هناك وسألنى عنك وكذلك فعلت شقيقته ويأملان فى حضورك الحفل.. والآن صارحينى يا آشلى لماذا أنت مهتمة هكذا؟

فنظرت أرضا وتعلقت بذراعه وهى تقول:

ـ لا شىء يا أبى.. لنعد إلى البيت.

ـ لن أتحرك قبل أن أعرف كل شىء.. أخبرينى بصراحة يا بنيتى.. هل لعب بمشاعرك.. وعدك بالزواج مثلا ولم يفِ.

ـ كلا.

ـ لقد سمعت أنه سيطلب يد الآنسة ميلانى فى الغد للزواج.

وسقطت يد سكارليت.. ولم تستطع المحافظة على مشاعرها التى هجمت على وجهها.. وراح والدها ينظر إليها بإشفاق وقلق.. فهو يحب ابنته ومع هذا لا يحب أن يتدخل فى مشاكلها الصبيانية غير المسئولة.

ـ هل كنت تطاردين رجلا لا يحبك فى الوقت الذى يمكنك فيه أن تختارى أفضل شباب المقاطعة؟!

فقالت بغضب بعد أن شعرت بالحرج:

ـ لم أطارد أحدا.. لقد فاجئنى الخبر.. هذا كل شىء.

ـ عذرا يا سكارليت.. ولكنى أعرفك جيدا وأعرف أنك لا تقولين الحقيقة.. أنت ما زلت صغيرة ومئات الشبان فى المقاطعة...

ـ لقد كانت أمى فى الخامسة عشرة حين تزوجت منها وأنا الآن فى السادسة عشرة.

فقال الأب بهدوء:

ـ الوضع مختلف يا عزيزتى.. والآن دعى عنك أى هم فسوف آخذك فى الأسبوع القادم لزيارة العمة أيولالى.

فهمهمت سكارليت بحنق:

- يظن أنى صغيرة.

- فكرى بهدوء يا بنيتى.. تزوجى أحد التوأم وبذلك نكون شركاء مع آل تارلتون فى إدارة المزارع.. وسنبنى لك أنا والسيد جيم تارلتون بيتا جميلا أفضل...

وقاطعته صارخة:

- أبى كف عن معاملتى كطفلة.. لا أريد شيئا مما تقول أنا فقط أريد...

وأمسكت عن الكلام ولكن كان قد كُشف أمرها، فقال جيرالد:

- يبدو أنك لا تريدين إلا آشلى.. ولكن طلبك صعب.. وحتى لو أراد هو الزواج بك فلن أوافق.. فأنا أريد لابنتى أن تكون سعيدة وأنا متأكد أن آشلى ليس الرجل المناسب.

فقالت بإلحاح طفولى غاضب:

- سأكون سعيدة.. سأكون سعيدة.

- كلا يا بنتيى لن تكونى كذلك.. نحن مختلفون عن وايلكز.. بل إن آل وايلكز مختلفون عن الجميع ومن الأفضل لهم أن يتزوجوا بعضهم البعض لتبقى طبائعهم وأطوارهم فيما بينهم.

- أبى!

ـ لا أقصد أنه إنسان سيء فقط عندما أتحدث إليه فإننى لا أفهم من كلامه شيئا.. هل تستطيعين أن تخبرينى سبب واحد لتعلقه الغريب بالكتب والشعر والرسم وما إلى ذلك من تفاهات!

ـ أستطيع أن أغير من شخصيته إذا ما تزوجته.

ـ لا أعتقد أن فردا من آل وايلكز استطاعت زوجته أن تغير من طباعه.. إننى لا أعرف السر وراء سفرهم لمشاهدة الأوبرا فى بوسطن ولا إصرارهم الغريب على قراءة الكتب الفرنسية والألمانية من الشماليين وهذا بدلا من أن يمضوا وقتهم فى الصيد أو لعب البوكر أو أى شىء ممتع.

ـ لا يوجد يا أبى من يفوق آشلى مهارة فى ركوب الخيل.. وأنت لا تنكر أنه ربح منك فى الأسبوع الماضى مائتى دولار عندما لعبت معه البوكر.

ـ ولكنه لا يفعل هذا من قلبه.. انظرى.. ما رأيك فى كيد كالفرت.. إنه شاب جيد وأهله ناس طيبون وسوف أترك لكما فى المستقبل مزرعة تارا.

ـ لا أريد كيد ولو كان آخر شاب فى الدنيا..

وأردفت بغضب وهى تضرب قدمها فى الأرض:

ـ ولا تارا ولا أية مزرعة أخرى ولا أى شىء فى الدنيا.

واستاء جيرالد لأن يكون هذا رد فعل ابنته على عرضه بهديته ـ تارا

- والتى يعتبرها أغلى شىء بعد زوجته.. وقال لها بحنق:

- هل تقصدين فعلا أن تارا لا تساوى شيئا.. يجب أن تعلمى أن الأرض هى الشىء الوحيد فى هذه الدنيا الذى له قيمة.

فأطرقت بيأس، فأمسك ذقنها وسألها بإشفاق:

- هل تبكين؟

فأشاحت بوجهها وقالت وهى تبتعد:

- كلا.

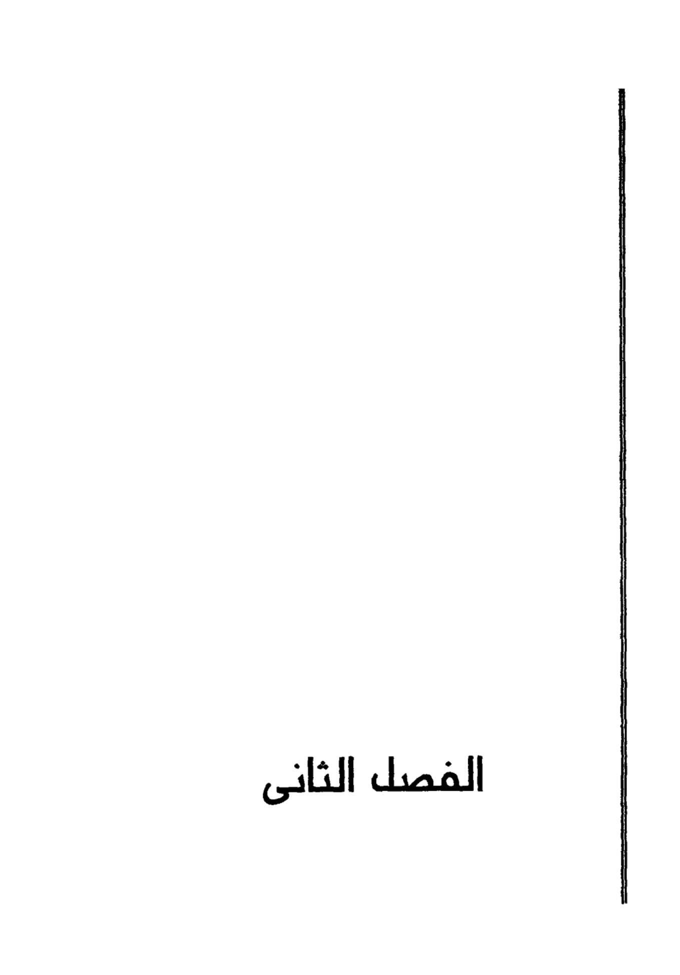
- أنت تكابرين.. وأنا أحب فيك هذا الكبرياء والاعتزاز بالنفس.

وأخذها من ذراعها وسار بها نحو المنزل، ورأتهما إيلين - زوجته وأمها - قادمين فتقدمت منهما بسرعة قائلة:

- ثمة مريض فى منزل سليتارى.. إيمى سليتارى وضعت طفلا وهو يحتضر ويجب تعميده.. سأذهب مع مامى.

واقتربت من سكارليت وربتت على كتفها وقالت:

- خذى مكانى على مائدة العشاء يا عزيزتى.



الفصل الثانى

وعلى مائدة العشاء راح جيرالد يهدر فى أذنى سكارليت عن الحرب وهذا على عكس عادته بسيطرته على نفسه أثناء الطعام، وكانت سكارليت لا تحب الحديث عن الحرب فحسب ولكنها فى هذا الوقت كانت منشغلة بـ(كارثة) زواج آشلى فلم تسمع ولا كلمة من أبيها.. وكانت تنصت بشدة إلى الطريق فى انتظار سماع العربة التى تقل أمها، ولولا خوفها من ثورة أبيها لتركت له مائدة الطعام بما عليها وتوجهت إلى القاعة المظلمة حيث مكتب إيلين الصغير لتلقى بنفسها على الكتب القديمة وتصرخ وتبكى كيفما تشاء.

وجاءت البشرى.. صوت العجلات وصوت إيلين الهادئ وهو تصرف السائق بلطف.. وكما فرحت سكارليت فلقد أشرق وجه جيرالد بعودة زوجته وسألها بمجرد الدخول:

- هل تم التعميد؟

قالت وهى تجلس إلى المائدة:

- أجل.. وقد مات المسكين.

- حسنا.. الموت أفضل له فوالده ليس إلا...

- كل شىء انتهى ولا نملك له إلا الصلاة.

- هل تعلمين أن كيد كالفرت كان فى أتلانتا هذا الصباح وأخبرنى أن الناس هناك منزعجون ولا يتحدثون إلا عن الحرب والتدريب واستنفار الجيش وقال لى إنهم فى تشارلستون لن يقفوا صامتين عن إهانات الشماليين بعد الآن.

ونهضت من مقعدها فسألها زوجها:

- سنبدأ الصلاة.. أليس كذلك؟

- أوه أجل.. الوقت تأخر..

وهتفت فى الخادم:

- يورك رجاء أحضر الشمعة.. وأنت يا مامى أحضرى كتاب الصلاة.

وأتياها بما طلبت.. وركعت على ركبتيها ووضعت الكتاب أمامها على المائدة وضمت يديها بخشوع وركع جيرالد إلى جوارها واتخذت سكارليت وأختها سولين المكان المعتاد فى الجهة المقابلة، ورغم أن الأختين ليستا على علم باللاتينية إلا أنهما كانتا تشعران بطمأنينة وهما تسمعان التراتيل.

وشردت سكارليت فى نفسها.. يجب أن تغير من سلوكها وشعورها وتصرفاتها.. إيلين علمتها أنها يجب كل ليلة أن تختبر ضميرها بعمق لتقف على أخطائها.. ورغما عنها فقد قادها تفكيرها فى النهاية إليه..

إلى آشلى.

فهو لا يعلم أنها تحبه.. وربما كان يحبها ولكنه لم يكن يجد منها إلا الحذر فى المعاملة فغض الطرف عنها.. ولكن ـ هكذا كانت تفكر ـ الوقت لم يفت بعد.. والمقاطعة شهدت عشرات حالات فرار شبان من فتياتهم.. والخطبة لم تعلن بعد بطريقة رسمية وكل شىء ممكن.

وانتهت الصلاة.. وتوجهت إلى غرفتها.. وتناهى إلى سمعها ـ من غرفة النوم صوت والدتها تقول لزوجها:

ـ سيد أوهارا.. يجب أن تطرد ويلكرسون.

وسمعت أباها يجيب:

ـ وأنى لى أن أجد وكيلا أمينا لا يسرق ولا يخدع.

ـ سام رجل طيب ويمكنه أن يتولى العمل بشكل مؤقت حتى تجد وكيلا جديدا.

وهمهمت سكارليت لنفسها:

ـ آه.. إنه والد الطفل المسكين.

وبدلت ثيابها وأطفأت النور وراحت تفكر.. إذا لم يقم آشلى بالخطوة الأولى فعليها أن تقوم بذلك.. ومن يدرى فقد تكون مساء الغد فى طريقها هاربة معه بعيدا عن هنا.

* * *

العاشرة صباحا.. الجو ربيعى دافئ وأشعة الشمس تمرح فى المكان.. ووقفت سكارليت تنظر إلى فستانها الأخضر الفضفاض المطروح على فراشها.. ولوهلة نظرت إليه باستخفاف وهى تتخيل هروبها مع آشلى إلى جونسبورا.

- ممم.. ترى ما الثوب الذى يمكنه أن يظهر مفاتنى بحيث لا يقاوم آشلى سحرى.

وفى هذه اللحظة دخلت مامى تحمل صحن طعام فالعرف يقضى أن بنات آل أوهارا يجب أن يكن ممتلئات بالطعام قبل الذهاب إلى أية حفلة حتى لا يمكنهن سوى تناول المرطبات هناك.

وابتدرها سكارليت:

- لا تتعبى نفسك فلن أتناول أى طعام ويمكنك إعادة ما بيدك إلى المطبخ.

فقالت مامى برفق:

- إذا لم تكونى تهتمين بما يقوله الناس عن هذه العائلة فأن أهتم.

- أمى سيدة مجتمع راقية ورغم ذلك تتناول ما تريد.

- بعد الزواج افعلى ما يحلو لك.

- أوه.. كم أتمنى لو كنت متزوجة.. ألا تعتقدين أن الرجال بعد الزواج يصدمون عندما يعرفون أن زوجاتهم يعرفن كل شىء.

ـ وقتها يكون لا وقت للتراجع فلقد أصبحوا متزوجين بالفعل.

وفكرت سكارليت فيما قالته مامى.. فلقد كانت تتصرف مع آشلى على طبيعتها بينما ميلانى كانت ضعيفة رقيقة.. ربما هذا سر اختياره لها.

* * *

واستقلت العربة إلى مزرعة آل وايلكز.. وشعرت سكارليت بشىء من الإثارة.. فلا والدتها ولا المربية معها.. وكل شىء يمكن أن تفعله فى هذا اليوم.

وامتطى جيرالد جواده وسار بجوار العربة وهو يشعر بالغبطة من أنه سيقضى يومه فى الحديث عن الشماليين والحرب المنتظرة.

ولدى وصولهم إلى نقطة تلاقى الطريق بالشارع الفرعى قال لينتيه وهو يشير إلى بعض السيدات:

ـ سيدات آل تارلتون.

وبادرته السيدة تارلتون بالسؤال عن زوجته فقال:

ـ لقد اضطررنا للاستغناء عن وكيل الأعمال وهى منشغلة فى مراجعة الحسابات معه قبل الرحيل.

وأردف يسأل:

ـ ماذا فعلت بخصوص خيولك، هل بعتها، فالحرب توشك أن تقع

والشباب يريدون أن تكون أمورهم معدة.

- ولكن قد لا تقع.

- يحزننى أن تتمسك سيدة راقية مثلك بخيولها فى الوقت الذى جيشنا فى حاجة إلى أية مساعدة.

- سأقدم للجيش أربعة شبان يمكن الاعتناء بأنفسهم ولكن خيولى لا يمكنها الاعتناء بنفسها.

* * *

وقبل أن تصل العربة إلى المزرعة وقبل أن ترى سكارليت منزل آل وايلكز فإنها رأت دخان الشواء المتصاعد فوق قمم الأشجار.. واقتربت ورأت المنزل وعبر نوافذه رأت السيدات المسنات وهن يجلسن فى غرفة الاستقبال.

وعلى درج المدخل وقف جون وايكلز إلى جوار زوجته فى استقبال المدعوين.

وبدأت سكارليت الاختلاط بالموجودين ووقعت عيناها على شخص لم تره من قبل ولكنه كان يحدقها بشدة فشعرت بسعادة كبيرة لكونها جذابة لاسيما هذا اليوم.. وبسرعة أدارت وجهها عنه دون أن تبتسم لتصده.. وسمعت أحدهم بهتف باسمه

- ربت.. ربت بتلر.. تعالى إلى هنا.

وكانت فى هذه اللحظة تقف مع الأخوين فقالت لهما:

ـ سأصعد إلى أعلى لتعديل شعرى.

وفى الداخل توقفت فى القاعة لتتحدث إلى إنديا ـ شقيقة آشلى ـ بلطف غير معتاد قبل أن تكمل طريقها إلى أعلى وتتوقف فى منتصف الدرج حين هتف باسمها شاب وسيم.

ـ أوه تشارلز هامتلون.. ما هذه الوسامة.. أراهن أنك جئت خصيصا من أتلانتا لتحطم فؤادى.

واحمر وجه تشارلز خجلا وكانت سكارليت تعرف أنه يخجل من البنات، وارتبك وهو يمسك يديها وراح يحاول جاهدا أن يجد ما يقوله فأسعفته بقولها:

ـ انتظر حتى أعود.. سنتناول الطعام معا.. لا أريد أن أعود فأجدك مع فتاة أخرى.. أنت تعرف أنى غيورة جدا.

وأعقبت كلامها بغمزة من عينها اليسرى ووقف تشارلز مشدوها لا يصدق أن هذا الكلام موجه له، والتفتت برشاقة لتكمل صعودها وسألت صديقتها كاثلين:

ـ من ذلك الوقح المدعو بتلر؟

ـ إننى لا أعرف كيف يسمح السيد وايلكز لنفسه بأن يدعو شخصا مثله.. لقد كان يزور السيد كينيدى فى جونسبوور لبعض أعمال

القطن واضطر بعدها السيد كينيدى أن يحضره على هنا.

- وما حكايته؟

- إنه من تشارلستون وينتسب إلى عائلة مرموقة ولكنهم نبذوه لسوء سمعته كما نبذه المجتمع فى وست بوينت ويروون فى ذلك قصة عن علاقة بفتاة لم يتزوجها.

* * *

وتوجهت سكارليت إلى الحديقة وجلست فى الحديقة الخلفية على مقعد مرتفع فى ظل سنديانة كبيرة.. ولسبب لم تفهمه شعرت أن أحلامها كلها قد تلاشت.. فلم يقم آشلى بأية خطوة تجاهها ولم تره على انفراد منذ أن أتت وكل الاتصال الذى حدث بينهما كان عبارة عن تحية ألقاها وكانت ميلانى - التى بالكاد تصل إلى كتفه - تتأبط ذراعه.

وكان تشارلز هامتلون مصاحبا لها رغم محاولات الأخوين العديدة، وكانت تسترق النظر إلى آشلى لعله ينظر إليها ولكنه كان منصرفا بكل كيانه إلى ميلانى.

وحانت منها التفاتة فرأت ريت بتلر ينظر لها كما تنظر إلى آشلى، وعندما بادلته النظر لمرة راح يضحك بشدة دون تكلف.

ومر الوقت.. وارتفعت حرارة الجو.. وبدأ جيرالد فى الحديث عن الحرب وعرفت سكارليت أن هذا معناه بقاؤهما حتى منتصف الليل.

ووجدت سكارليت نفسها وحيدة مع تشارلز الذى قال لها بصوت منخفض:

- آنسة أوهارا.. لقد عزمت على الذهاب إلى كارولينا للالتحاق بالجيش إذا ما قامت الحرب.. ترى إذا ما ذهبت.. فهل يحزنك هذا؟

وكانت تريد أن تتمادى فى خطتها فقالت:

- سأبكيك طول الليالى.

- أوه آنسة أوهارا.. ثمة شىء يجب أن أصارحك به.. أنا.. أنا أحبك.

- تحبنى؟!

- أجل.. أنت أجمل فتاة رأيتها.. وأنا أحبك من كل قلبى.

وتوقف تشارلز وقد تعالى نبضه وتسارعت أنفاسه.. وأخيرا قال:

- هل تقبلين الزواج منى؟

وهنا أحست برغبة شديدة فى أن تخبره بمدى تفاهته.. ولكنها تذكرت كيف عليها أن تقابل مثل هذه المواقف فقالت:

- سيد هاملتون.. ما تقوله شرف كبير.. فى الحقيقة أنت فاجأتنى ولا أجد أمامى فرصة للتفكير فيما تقول.

وكان جوابها هو الرد المناسب لصده والاحتفاظ به لوقت حاجة، فقال لها:

- سأنتظر.. سأنتظر إلى الأبد.

وتعالت أصوات الحديث الحماسية عن الحرب، وانضم إليهم تشارلز وراح يدلى بدلوه، وكل الحديث كان يدور حول إمكانية النصر المحتمة، وفجأة ـ ومن بين الحماسة ـ انبرى ريت بتلر قائلا:

ـ هلا سمحت لى أيها السادة بأن أبدى رأيى.

كانت لهجته لا تخلو من سخرية.. ولم ينتظر موافقتهم وتابع:

ـ هل فكر أحد منكم فى أن الجنوب لا يملك ولو مصنعا واحدا للمدافع.. وهل يعرف أحد منكم ما كمية الحديد الموجودة فيه.. بكل صراحة أقول إن الشماليين أفضل تسلحاً منا.. فلديهم المصانع والموانئ ومناجم الفحم وأسطول بإمكانه محاصرتنا وتجويعنا حتى الموت، وكل ما نملكه نحن هو القطن والعبيد...

وصمت لحظة وأردف:

ـ والغطرسة.

فقال ستيورات:

ـ ما الذى تعنيه أيها السيد؟!

ـ إننى أعنى ما قاله نابليون.. فى الحرب يكون الرب إلى جانب الجيش الأقوى.

* * *

وتعالت صيحات المربيات يهتفن على الفتيات ليسترحن فى غرف

النوم العلوية.

أما سكارليت فلقد استغلت وجود ميلانى فى فراشها وهبطت تبحث عن آشلى.. لم تجده.. لمحت باب غرفة المكتبة نصف مغلق فدخلت دون أن يراها أحد.. وأغلقت الباب قليلا وهى تضع يدها على قلبها الذى يقفز من مكانه.. وراحت تراجع فى نفسها ما كانت تنوى قوله لآشلى ولكنها لم تتذكر أى شىء.. وسمعت صوت خطوات.

ـ سكارليت.. مم تختبئين.

كان هو.. يهتف بمرح وهو يتوجه بخطواته إلى حيث هى.. ولما اقترب ودون كلام مدت يدها وسحبته إلى الداخل.. فوقف أمامها وقال:

ـ ما الذى يدور برأسك.. ولماذا لستِ بالدور العلوى تستريحين مع بقية الفتيات؟!

ـ إنى أحبك.

قالتها بسرعة ودون تردد فهى تعرف أنها لو فكرت فلن تجرؤ.. وساد الصمت.. وأخيرا قال آشلى بمزيج من الدعابة والاستفزاز:

ـ ألا يكفي أنكِ استحوذتِ على قلوب كل الرجال اليوم.. هل تريدين نصرا كاملا؟!

وقالت دفعة واحدة:

ـ آشلى قل لى إنك تحبنى أرجوك لا تغضبنى إن قلبك لى يا حبيبى

ويجب...

ووضع يده على فمها وقال:

- لا يجب أن تقولى مثل هذه الأشياء ستكرهيني لاحقا لسماعي هذا وستكرهين نفسك لأنك قلتِها.

- لا يمكن أن أكرهك وأعلم أنك مهتم بي.. ألست مهتما بي يا آشلى؟

فقال بوجه بارد تعس:

- بلى يا سكارليت.

فأحاطت رقبته بذراعيها فقال وهو يتراجع برفق:

- سكارليت.. يجب أن نفترق وننسى هذا الكلام وكأنه لم يكن.

- كيف يمكننا ذلك؟ ألا تريد أن تتزوجني؟

- سأتزوج من ميلانى.. سأعلن خبر الخطوبة اليوم وكنت أظنك على علم.

- كل ما أعلمه أنى أحبك.

- الحب ليس كل شيء.. نحن مختلفان يا سكارليت أما ميلانى فهى مثلي إنها جزء من دمي ونحن نفهم بعضنا جيدا.

وتملكها الغضب وصاحت:

- أيها الجبان.. قل إنك خائف من الزواج منى وتفضل الحياة مع

تلك الحمقاء النحيلة.

ـ لا تتحدثى عن ميلانى هكذا.

ـ جبان.. سافل.. أكرهك حتى الموت حتى الموت.

وصفعته.. بكل قوة انهالت بيدها على خده.. وبسرعة تلاشى الغضب وتحول إلى سكون وحزن وأسى.. ولم يتكلم آشلى.. فقط أخذ يديها وطبع عليها قبلة صغيرة وغادر بهدوء وأغلق الباب خلفه.. وانهارت سكارليت وتساندت على المكتب.. ورأت أمامها قطعة خزفية فأمسكتها بقوة وألقتها نحو جدار المدفأة قبل أن تسقط على الأرض ألف قطعة.. ومن خلف الأريكة ـ الكائنة أمام الجدار ـ خرج صوت:

ـ لا.. هذا كثير.

ومن خلف الأريكة ظهر ريت بتلر الذى كان مستلقيا، وتقدم نحوها وقد شحب وجهها وانحنى بتهذيب وقال:

ـ من السىء جدا أن حديثا مثل هذا يمنعنى عن النوم، والأسوأ أن تتعرض حياتى للخطر.

ـ أوه أيها السيد.. كان يجب أن تعلن عن وجودك.

ـ أنا موجود من قبل أن تدخلى وكنت أنتظر السيد كينيدى.

ـ أنت لست مهذبا بالمرة.

ـ ملاحظة ذكية.. أنت أيضا سيدة غير محترمة.. أوه.. لا أقصد

الانتقاص من شأنك.. فأنا أفضل هذا النوع.

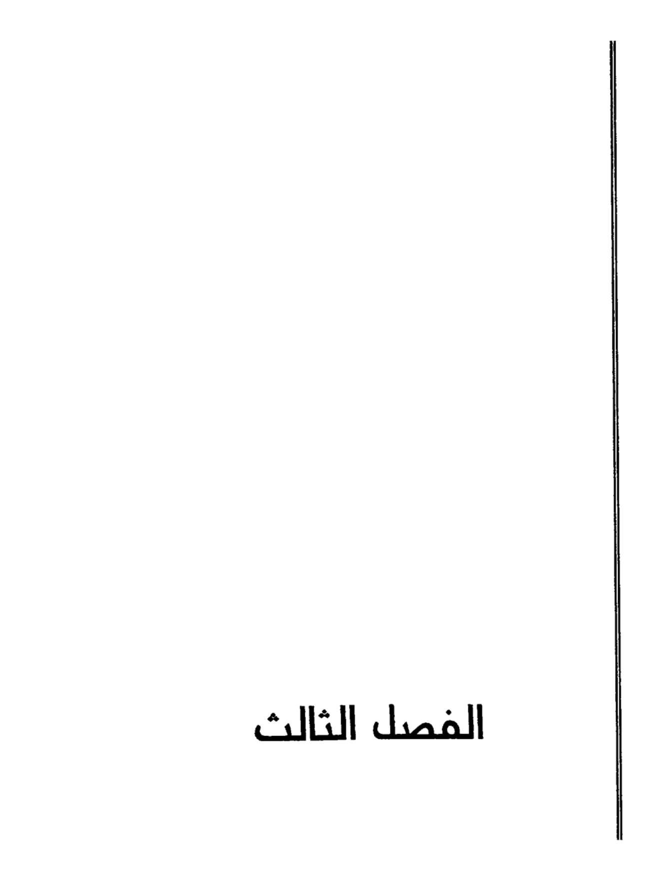
ونظرت له بغضب وتمنت لو تقتله قبل أن تستدير بعنف وتغادر المكتب.. وفى الممر رآها تشارلز فأقبل نحوها وقال:

- هلا جلسنا قليلا.

وجلست فى مقعد جانبى، وقال:

- هل فكرتِ فيما قلته لك؟

- أجل يا تشارلز فكرت.. وأنا موافقة.. ومن الأفضل أن تسارع فى الأمر.. والدى هنا ويمكنك أن تتحدث إليه.



الفصل الثالث

وبسرعة أصبحت سكارليت زوجة لتشارلز، وبسرعة أيضا أصبحت أرملة.. أما أكثر ما أزعجها أن تشارلز قد مات ـ فى الحرب ـ بعد أن تركها حاملا!

ووضعت ولدا.. ويد هامبتون.. على اسم قائد الفرقة التى كان ينتمى إليها زوجها.. هكذا تقتضى التقاليد.

وظلت سكارليت بعدها فى حالة نفسية سيئة وفقدت بريقها ونشاطها على الرغم من محاولات سكان المزرعة لإخراجها مما هى فيه.

وقررت التوجه بابنها إلى أتلانتا وأخذت معها المربية بريسى لتقيم مع زوجة آشلى تحت سقف واحد.. ورغم أنها فكرة بغيضة إلا أنها كانت أفضل من الحياة فى المقاطعة بكل ذكرياتها المؤلمة.

* * *

وفى المحطة راحت تبحث بعينيها عن الآنسة بيتى بات.. كانت الأرض موحلة ولم تجرؤ على النزل من القطار حتى لا تتسخ قدماها.. وأثناء هذا تقدم منها رجل أسود متقدم فى السن يحمل قبعته بين يديه

وقال:

ـ الآنسة سكارليت.. أليس كذلك.. أنا بيتر سائق عربة الآنسة بيتى.

ومد يده وساعدها على النزول، وتذكرت ما قاله لها تشارلز عن علاقة عم بيتر بأبيه بأنه فى مكانة أخ لاسيما بعد أن أنقذ حياة والده ـ والد تشارلز ـ خلال حرب المكسيك، وأنه الذى قام بتربيته ـ تربية تشارلز ـ هو وأخته بعد وفاة الوالدين.

وقال العم بيتر:

ـ الآنسة بيتى فى حالة لا تسمح لها باستقبالك وتأمل فى أن تتفهمى الوضع.

وهكذا وجدت سكارليت نفسها فى أتلانتا دون أن تعرف كم ستبقى، وبمجرد وصولها راحت العمة بيتى وميلانى تقنعانها بالبقاء بصورة دائمة لاسيما أنهما تشعران بالخوف من المنزل الكبير ويكنان حبا لسكارليت.. والأمر نفسه طلبه منها هنرى هامتلون ـ عم تشارلز ـ وهو الوصى على أملاك بيتى وميلانى وأيضا وصى على ما تركه تشارلز لسكارليت وابنه.. وكانت مفاجأة سارة لسكارليت أن تعلم أنها صاحبة ثروة بعد أن ترك لها تشارلز نصف بيت العمة بيتى وبعض الأملاك فى البلدة وأكثر من أرض زراعية ومخازن ومحلات على طول طريق السكة الحديدية.

وشعرت سكارليت بشىء من الراحة فى المنزل الجديد.. وبدأ يعود إليها إشراقها وحيويتها.. لاسيما بعد أن زال عنها هم الصغير وتركت أمره للخدم وسكان المنزل الذين أحبوه بشدة .

وكانت حين تؤوى إلى فراشها وتلقى برأسها على الوسادة تتنهد بحرقة وتقول فى نفسها:

ـ لو لم يكن آشلى متزوجا.. أو لو كان بوسعى مصادقة بعض الشبان!

* * *

نهار أحد أيام الصيف.. جلست إلى نافذة الغرفة ترقب العربات والحافلات التى تقل الجنود والوصيفات فى طريقهم لجمع الزهور لإقامة معرض خيرى يخصص دخله للمستشفيات.

وراح الناس يلوحون لها ببشاشة ولكنها وجدت صعوبة فى أن تجاريهم.. إنها لا تشعر أنه من العدل أن تكون زوجة لرجل ميت وأما لطفل يصرخ أثناء الليل وأطراف النهار.

وتوقفت عن تلويحها الهزيل حين دخلت عليها العمة بيتى.

ـ أوه هل جننت يا عزيزتى كى تلوحى للرجل من نافذة غرفة نومك.. الحق أننى صدمت وكذلك ستصدم والدتك حينما تعرف.

ـ هدئى من روعك.. قد لا يعرفون أنها غرفتى.. على كل حال أنا

آسفة وأعدك ألا أكرر هذا الفعل.. فقط إننى كنت أتمنى لو كنت بينهم فلقد سئمت من الجلوس فى المنزل.

ـ عزيزتى.. عدينى بألا تذكرى هذا الكلام مرة أخرى.. إذا سمع أحد كلامك فسيقول إنك لا تحملين فى نفسك الاحترام اللازم لذكرى زوجك.

وجاءت ميلانى لتدخل فى الأمر، ولم يخلصها إلا قدوم السيدتان إلسينج، ومرويزر ـ من أشهر سيدات أتلانتا والمشرفتين على أعمال الكنيسة ـ وقالت الأخيرة:

ـ ابن السيد بونيل قد أصيب بالحصبة.

وقالت السيدة إلسينج:

ـ وأيضا اضطرت الفتيات للسفر إلى فرجنيا، كما أصيب دالاس أخوهن، ونحن بحاجة إليك أنت وميلانى لتحلا محل بونل.

ـ ولكن...

ـ لا تقولى لكن.. فنحن فى حاجة لأن تشرفا على الخدم أثناء تقديم المشروبات للمدعوين.

وقالت سكارليت:

ـ هذا أقل ما يمكننا فعله من أجل المستشفى.

* * *

وكلفت سكارليت بالإشراف على جناح صغير مع ميلانى.. جلست خلف الطاولة وهى تجيل النظر فى المكان.. وخفق قلبها فرحا لمشاركتها فى الاحتفال.. ثم أدركت أنها تشارك لمجرد المشاركة وليس إيمانا بالقضية كما يفعل كل من حولها.

ومرت الأحداث صاخبة مبهجة.. وفجأة لفت انتباها قدوم رجل ينظر باستهزاء لكل من حوله.. وبسرعة تذكرت فيه ريت بيلر.. كتمت صرخة صغيرة.. وتقدم منها بتلر وهو ينظر فى عينيها بثقة وبرود وسخرية.

- آمل أن تكونى قد عرفتنى يا آنسة أوهارا.

ووجدت نفسها تبتسم وهى تقول:

- سيد ريت بتلر.. أهو أنت..؟!

- يشرفنى أنك تتذكرينى.

- ما الذى تفعله هنا؟

- بعض الأعمال.. ولن تكون الزيارة الأخيرة.. فجلب البضائع لا يكفى إذ يجب أن أشرف على توزيعها بنفسى.

- أوه.. أنت إذًا كابتن بتلر الشهير الذى يتحدثون عنه فى أتلانتا والذى خرق الحصار وكل فتاة ترتدى فستانا هنا يعود الفضل فيه لك.

ونظر حوله إلى لا شىء وقال:

- الجو حار.. أرى الإرهاق على وجهك يا آنسة أوهارا.

فتدخلت ميلانى بقولها:

- إنها ليست آنسة.. يمكنك مناداتها بالسيدة هامتلون.. إنها زوجة أخى تشارلز الذى...

ولم تستطع أن تكمل.. فقالت سكارليت.

- الذى مات فى الحرب.

فرسم بتلر على وجهه عبارات الأسف وهو يقول:

- إنه أمر مؤسف للغاية.. رجاء اغفرا لى جهلى واسمحا لغريب أن يقدم آسمى آيات التعازى فى ذلك الوطنى المخلص الذى مات فداء لبلاده.

وتغيرت نظرات ميلانى إلى بتلر وراحت تنظر إليه كنبيل طيب.. وجلست سكارليت على مقعدها وراحت تهوى على نفسها وسأل بتلر:

- هل مضى وقت طويل على الوفاة المحزنة؟

- سنة تقريبا.

- وهل دام الزواج كثيرا.. اعذرى لى كثرة أسألتى فلقد كنت غائبا لفترة طويلة.

فقالت سكارليت ببرود:

ـ مجرد شهرين.

ـ يا لها من مأساة.

وكتمت سكارليت غيظها.. إنها لا تستطيع طرده فهو يحمل سرها.. وقالت:

ـ تقاليد الحداد هنا بأن ترتدى المرأة الأسود طول عمرها وتحرم عليها متع الحياة هى أشبه بعادات الهندوسوتى البربرية.

ـ هندوسوتى؟!

وقهقه بتلر.. ثم اقترب من أذنها وهمس:

ـ لا تخشى يا سيدتى.. إن سرك الصغير طى الكتمان.. وفى المقابل لا أريد أكثر من أن تكونى عشيقتى.

وغمز بعينه ساخرا.. وكان غريبا عليه رد فعل سكارليت.. إذ ضحكت.. بشدة ضحكت.. فضحك.. والتفت الناس ونظروا لهما باستنكار.. وطلبوا منهما ـ بالإشارات ـ الصمت فى الوقت الذى اعتلى فيه الدكتور ميد المنصة ليلقى كلمته التى دعا فيها الحاضرين للتبرع بما يقدرون.. وفى هذه اللحظة شعرت سكارليت بقيمة للحداد الذى منعها من ارتداء حليها.. ورغم هذا شعرت بالخجل لكونها الوحيدة التى لم تتبرع.. وانتبهت إلى خاتم الزواج فى يدها.. وبسرعة راحت تخلعه ـ بصعوبة ـ وألقت به فى سلة التبرعات..

وكان بتلر يرقب كل أفعالها.. ومالت ميلانى على أذنها وقالت:

- أنت فتاة شجاعة.

وبدورها خلعت خاتم زواجها ووضعته فى السلة.. وقال بتلر بنبل مصطنع:

- يا له من عمل مؤثر.. تضحيات مثل هذه تملأ قلوب الرجال بالقوة وتزودهم بالعزيمة.

ورمقته بنظرة مقت.. وقررت فى نفسها أن تعلن الحرب عليه.. فقالت بعذوبة:

- هذا كلام لطيف.. لا سيما حين يصدر من رجل مهم مثلك.

وقهقه، وقال:

- كونى صريحة.. فى الحقيقة لقد خيبت أملى.

- خيبت أملك؟!

- فى المرة الأولى قلت لنفسى إنى قابلت الفتاة الجريئة أخيرا.. ولكن الآن...

- هل تقصد أنى جبانة.

- ... ولا تملكين الجرأة لقول ما بداخلك.

- حسنا.. إليك الحقيقة إذًا.. لا أريد رؤية وجهك الكريه مرة أخرى فأنت لست إلا وضيع وهبته الظروف بعض المال واستغل الحرب لينتفع

من ورائها ساخرا بالرجال الشجعان والنساء المضحيات بكل شيء في سبيل القضية...

فقاطعها بهدوء باسما:

- لا تتحدثي عن القضية.. لقد تعبت من هذا الكلام الممل كما أراهن أنك تعبتِ أيضا.. وأراهن أن كل ما في ذهنك هو البحث عن المتعة.. الكثير منها.. ترى هل أنا على حق؟!

ومنعها عن الرد اعتلاء دكتور ميد مرة أخرى ليعلن عن مزاد رقص مع إحدى الفتيات التي يختارها أحد الرجال وتخصص ربع القيمة للمستشفى.. واقترب بتلر من دكتور ميد وأسر في أذنه ببضع كلمات استطاعت سكارليت أن تخمنها.

- السيدة تشارلز هاملتون.. مائة وخمسون دولارا ذهبيا.

وخيم الصمت.. المبلغ كبير ولا يتوقعه أحد.. وظلت سكارليت في مكانها.. وقال دكتور ميد:

- قلت لك من المستحيل أن تجيب طلبك.

ولكن صوتها شق المكان:

- أوافق.

وعزفت الموسيقى وأفسحوا المجال للراقصين.. وأخذها بتلر بين يديه.. وهمست له بحنق:

ـ كيف تجرأت أن تجعلنى أخرج عن التقاليد.

ـ لم أفعل أكثر من أننى حققت لك رغبتك.

ـ ابتعد قليلا يجب ألا تضمنى بشدة هكذا أمام الناس.

ـ هل المشكلة لديك فى وجود الناس؟!

ـ أرجوك لا تنس من تكون ومن أكون.

ـ لمرة واحدة أخرى سأعتصرك بين ذراعى لأراك وأنت تفقدين أعصابك.. فأنت لا تعرفين كم كنت فاتنة حين فقدتِ أعصابك فى ذلك اليوم.

ـ أوه لقد توقفت الموسيقى وها هى العمة بيتى قادمة ولا أريدها أن ترانى الآن.



الفصل الرابع

وفى اليوم التالى وصلت رسالة إلى ميلانى، فضتها باستنكار وراحت تقرأ، وفجأة انخرطت فى البكاء. فارتاعت العمة بيتى ووضعت يدها على قلبها وصاحت:

- آشلى!

وصرخت سكارليت، وبسرعة نظرت إليهما ميلانى وهى تقول:

- لا تخافا.

وفتحت راحة يدها.. وقربتها من فمها وراحت تقبل شيئا لامعا.. وأخذت سكارليت الرسالة باضطراب وراحت تقرأ:

- "صحيح أن الاتحاد فى حاجة إلى دماء رجاله، ولكنه ليس فى حاجة إلى قلوب نسائه.. السيدة العزيزة.. أرجو أن تتقبلى منى هذه الهدية كعربون احترام وتقدير، ولا تعتقدى أن ضحيتك ذهبت بلا مقابل، فالخاتم تم تعويض ثمنه بعشرة أضعاف ثمنه الحقيقى... كابتن ريت بتلر".

ووضعت ميلانى الخاتم فى إصبعها وراحت تتأمله بسعادة، وقالت لعمتها بيتى:

ـ قلت لك إنه رجل نبيل.

وشعرت سكارليت بغيظ شديد لأنه لم يُعد لها خاتمها، وكانت تعرف السبب الحقيقى وراء فعلته وهى تلقى دعوة لزيارة المنزل.

وحصل على الدعوة.. وراح يتردد بصورة دائمة على المنزل كلما جاء إلى أتلانتا.. وكان يصحب سكارليت معه إلى حفلات الرقص.. وينتظرها خارج المستشفى ـ حيث تعمل كممرضة متطوعة ـ فيوصلها إلى البيت.. وقالت له ذات يوم:

ـ أنت ترى أنى أجمل من ميلانى بكثير، ومع هذا لا أعرف السر وراء معاملتك لها بأسلوب أفضل من معاملتك لى.

ـ أرى أنك غيورة.. وعلى كل حال فأنا أعامل السيدة ميلانى بما تستحقه.

ـ هل تقول إنى وضيعة؟!

ـ أعتقد أننا متفقان منذ المقابلة الأولى أنك لست سيدة على الإطلاق.

ـ أنت نذل.

ـ هل تتوقعين أن أغضب لهذا الوصف؟! للأسف سأخيب أملك.. أنا فعلا نذل.. نحن فى بلد الحرية وكل إنسان حر فيما يريد أن يكون.. أما من هن على شاكلتك فهن يشرن عندما يظهر أحد حقيقة ما

بداخلهن.

ولم تستطع الرد.. يبتسم بهدوء وثقة ونصر وتعرف أن شيئا لن يـؤثر ليه.. أما أكثر ما أزعجها أنه لم يبد له حبه.. والأسوأ أنه كشف كل حيلها للإيقاع به.. ولولا ظروف الحرب والخدمات التى يقوم بها للحكومة ـ بغرض الربح المادى ـ لما تشرف منزل واحد فى أتلانتا باستقباله.

وقالت له ذات يوم آخر:

ـ سمعت أن إنجلترا وفرنسا ستقفان إلى جانبنا فى الحرب.

ـ هراء.. لقد كنت فى إنجلترا قبل شهر وأنا متأكد أنها لن تساعد الاتحاد فى أى شىء وهذا لسبب بسيط وهى أنها لا تراهن على فرس خاسر.. فكرة المساعدة مجرد وهم صنعته الصحف من أجل رفع الروح المعنوية.. على كل حال لقد قررت التوقف عن التهريب بعد أشهر قليلة وسأبيع سفنى.. فلقد جمعت ثروة هائلة بالفعل ولا حاجة للمزيد.

* * *

وجاءت الأخبار أن الجنوبيين انتصروا فى تشنلرسفيلن وأن الجنرال (لى) متوجه بجنوده نحو بنسلفانيا وأنه أصدر أوامر مشددة بعدم المساس بالأملاك.

ووصلت إلى الدكتور ميد رسالة من ابنه - دارسى - يطلب منه حذاء لأنه - ولأسبوعين - يقاتل حافيا ولا يمكن لضابط برتبة كاتبن أن يقاتل حافيا!

ووصل خبر الرسالة إلى منزل العمة بيتى.. وراح الثلاثة - بيتى وميلانى وسكارليت - يتبادلن نظرات الهلع.. فآشلى واحد من ضباط جيش الجنرال دارسى.

وجاءت الأخبار الجديدة بأن الجيش يخوض معارك وحشية فى بنسلفانيا وأن مدينة فيكسبرج احتلها الشماليون وبهذا أصبح نهر المسيسبى تحت سيطرتهم وهذا معناه أن الاتحاد انقسم إلى شطرين.

وذهبت السيدات الثلاث إلى مكتب جريدة ديلى اكزمنر بصحبة باقى معارفهن، فمن هناك يمكنهن الحصول على المعلومات الأكيدة.. وشق بتلر الجمع بجواد ووصل إليهن فى عربتهن المكشوفة، وقال:

- لقد جئت أيها السيدات لأخبركن بقرب وصول قوائم الضحايا.

وفى اللحظة نفسها فتحت النافذة الجانبية لمكتب الجريدة وخرجت من يد الموظف وهى تحمل مئات النسخ من القائمة، وبسرعة توجه بتلر وعاد بعد لحظات وهو يحمل خمس نسخ وأعطى لميلانى نسخة وراح يوزع الباقى على السيدات.

وكانت ميلانى متوترة مرتعشة فقالت لسكارليت:

- لا أستطيع.

فانتزعت سكارليت القائمة وراحت تبحث بعين مجنونة ثم تنهدت بارتياح وقالت:

ـ حمد لله.. اسمه ليس موجودا.

وأغمضت ميلانى عينيها وهدأت وسألت سكارليت السيدة ميد:

ـ هل دارسى بخير؟

فأمسكت السيدة بذراع سكارليت، ونظرت لها بعين دامعة وقالت بصوت مخنوق:

ـ لا.

فقالت سكارليت بتأثر:

ـ إن كل بيت به فقيد.. وجميع أبناء تارلتون قد ماتوا.

فقال بتلر:

ـ الأمر لم ينته.. هذه هى القوائم الأولية وغدا هناك المزيد.. فالجنرال لى قد خسر المعركة وسمعت من مقر القيادة أنه تراجع إلى ماريلاند.

ونظرت له سكارليت بعين دامعة مذعورة وقالت:

ـ لماذا الحرب؟!

ـ طالما يميل الرجال إلى تسوية نزاعاتهم بالقوة فلن تنتهى الحروب من هذا العالم.

* * *

وبعد غياب سنتين.. جاء آشلى فى أجازة عيد الميلاد.. وكانت سكارليت قد عزمت على قضاء العيد فى تارا ولكن بعد برقية آشلى نسيت تماما تارا ومن فيها!

وقبل العيد بأربعة أيام وصل آشلى.. ومر أسبوع الأجازة كالبرق.. وفى يوم رحيله جلست سكارليت على الأريكة تنتظره فى الوقت الذى كان يودع فيه زوجته بالأعلى.

وعندما نزل كان وجهه شاحبا وهو يقف أمامها.. وفاجأته سكارليت بقولها:

ـ هل أرافقك إلى المحطة؟

ـ أوه كلا أرجوكِ.

ـ لقد أحضرت لك هدية.

وناولته حزاما أصفر حريريا فقال:

ـ إنه لطيف للغاية.. هل أنت من صنعه؟

ـ أجل.

ـ سأحتفظ به دوما.

وقالت بلوعة:

ـ آشلى!

فتبسم وهو يقول:

ـ هل يمكن أن أترك ميلانى فى رعايتك؟

وشعرت بمرارة وخيبة أمل، وراح يردف:

ـ اعتنى بها من أجلى.. إنها تحبك كثيرا.. ولن أستطيع النوم وأنا أفكر فى أنى قد ألقى حتفى وليس هناك من يرعاها.

ـ أوه آشلى لا تذكر الموت إنه ليس فألا حسنا.. ردد الصلاة بسرعة.

ـ ستصلّين نيابة عنى هنا.. فعندما تأتى النهاية سأكون بعيدا.. بعيدا جدا.

ـ النهاية؟!

ـ نهاية الحرب أو نهاية العالم.

وسألته بلوعة:

ـ هل تظن أننا سنهزم؟

فصمت لحظة وأطرق وقال:

ـ أجل يا سكارليت.

ـ أوه لا.. لن أدعك تذهب.

ـ كونى شجاعة يا سكارليت وإلا فكيف أتحمل؟!

وانحنى عليها.. وأمسك وجهها وطبع قبلة على جبينها وقال:

ـ سكارليت.. سكارليت.. أنت لطيفة ورقيقة وطيبة القلب.

- لم يقل لى أحد هذا الكلام من قبل.

- إنها لحظة الوداع.

وهم بالابتعاد فاقتربت منه وهى تقول:

- قبلنى.. قبلنى قبلة الوداع.

فاقترب منها بهدوء، ومال عليها ومس شفتيها، فطوقته بعنف وهى تضغط على شفتيه بشدة وللحظة استسلم لنفسه فشدها إليه بقوة، قبل أن يفيق ويتملص منها بهدوء ويقول بصوت خافت:

- لا.. لا يا سكارليت.

فقالت بصوت مخنوق:

- أنا أحبك يا آشلى.. دائما ما أحببتك ولم أحب أحدا غيرك.. قلها يا آشلى.. قل إنك تحبنى وسأعيش عليها بقية حياتى.

وانحنى ليلتقط قبعته، ونظرت لوجهه فرأته بائسا وعرفت أنه يحبها وسعيد بأنها تحبه ولكن ضميره لا يسمح له بالتمادى.

وفتح الباب.. وقال دون أن يلتفت:

- وداعا.

* * *

وبعد أشهر قليلة وصلت برقية من قائد آشلى: "يؤسفنى أن أبلغك يا سيدتى أن الميجور آشلى وايلكز مفقود منذ ثلاثة أيام".

وهرعت سكارليت إلى غرفة نومها وركعت وراحت تصلى وتتضرع.. وشعرت أن الله يعاقبها على إثمها بحبها لرجل متزوج.. وبعد أيام جاءت التقارير الأولية التى تعلن استمرار فقده والاعتقاد بأنه قتل.. وبعد أيام أخرى جاء اسمه على قائمة الضحايا وبين قوسين (يعتقد أنه أسر) فعاد الأمل مرة أخرى إلى العائلة.. وجاء بتلر الأخبار الأكيدة:

ـ السجلات تدل على أنه فى روك آيلاند، وللأسف فمعظم من يدخل إلى هناك لا يخرج أبدا.

وقالت ميلانى من بين دموعها:

ـ ألا يمكنك أن تفعل أى شىء بنفوذك وتقوم بعملية مبادلة.

ـ للأسف يا سيدتى فالأوامر صدرت بأنه لا مبادلة.

* * *

ولم تستطع سكارليت مواصلة العمل فى المستشفى بعد أن امتلأ عن آخره بالجرحى والقتلى والمبتورين.. وخرجت منه ذات يوم ووقفت عند ناصية الشارع حين مر ريت بتلر بعربته وقال لها:

ـ تبدين كمتشردة!

فانفجرت فيه:

ـ اسمع.. لا أريد سماع كلمة واحدة.. انزل حالا وساعدنى على

الركوب وخذنى بعيدا عن هذا المكان البشع.. لن أعود إلى هنا ثانية حتى ولو شنقونى.

فقال بلهجة جادة تمثيلية:

- أيتها الخائنة للقضية.

وحين نزل لمساعدتها نظرت له وهى تشعر بالراحة لأن ترى رجلا سليما لا تنقصه عين ولا رجل ولا ذراع وليس وجهه شاحبا أو هزيلا.

وبعد لحظات كانت بجواره.. وكانت الشوارع شاغرة بالحركة فتساءلت:

- ما الذى يجرى؟

- يقيمون التحصينات.. قد تكون مفيدة فى حالة الحصار.

فصرخت:

- حصار.. هل وصلت إلى هذا الحد.. أدر العربة سريعا.. أريد العودة إلى تارا!

- أراهن على أن الشماليين سيكونون هنا خلال شهر واحد.. أراهن على علبة من البونبون مقابل قبلة منك.. يجب أن تحصلى على قبلة من رجل يجيد التقبيل.. وفى كل الأحوال سوف أقبلك ولكنى فقط أنتظر الوقت المناسب حين تكبرين قليلا وحين تنسين ذكرى آشلى المحترم.

فصرخت فيه:

ـ أنزلنى.. أنزلنى أيها الحقير.. لا أريد التحدث معك مرة أخرى.

فأوقف العربة بهدوء وأنزلها.

* * *

وبدأ الجنود الفارون فى التوجه إلى أتلانتا.. وللمرة الأولى يسمع سكان المدينة دوى النيران.. وأمام بيت العمة بيتى رقد عشرات الجرحى.. وأخذت العمة بيتى فى محاولات الإسعاف وإحضار الماء، وسارعت سكارليت نحو السائقين لتعرف منهم الأخبار.. وجاءتها الأخبار المؤكد بالهزيمة.. وبأن الشماليين قادمون.

وبدأت القذائف فى السقوط على المدينة.. وتقرر إجلاء الأطفال والسيدات وإرسالهم إلى بلدة ماسون.. وقالت ميلانى بإصرار إلى بيتى:

ـ لن أذهب.. سأعود إلى تارا.. خذى ميلانى واذهبا.

وقالت لها ميلانى:

ـ هل ستتركينى بمفردى.. لا يمكن أن أضع مولودى وأنت بعيدة عنى.

وجاء الدكتور ميد لاهثا وقال:

ـ السفر صعب جدا على ميلانى فى هذا الوضع.. القطارات مكدسة وقد يتركون الركاب فى الغابة فى أية لحظة لإعطاء الأولوية لنقل

الجرحى.. كما لا يوجد طبيب فى المنطقة غيرى بعد أن التحق فونتين العجوز بالجيش.. ولهذا فعليك البقاء مع ميلانى حتى تضع.

* * *

وسافرت العمة بيتى.. ولم يبق فى المنزل سوى سكارليت وميلانى وبريسى الخادمة، وتعالت الانفجارات فى المدينة وكانت سكارليت تقفز إلى فراش ميلانى وهما ترتجفان خوفا.

وجاءتها رسالة من جيرالد يطمئنها فيها أن العدو لم يصل إلى تارا بعد ولكنهم يسمعون دوى المدافع.

وفى المساء - وأثناء وقوفها فى نافذة غرفتها - رأت بتلر قادما.. نزلت لرؤيته فبادرها قائلا:

- لماذا لم تذهبى إلى ماسون؟

- ميلانى مريضة.

- هذا موقف غريب.. لماذا فعلت ذلك؟

فقالت بحدة:

- ميلانى شقيقة زوجى وهى كأخت لى.

- أم تراك تقصدين أنها أرملة آشلى.

صاحت فيه:

- اخرج.

ـ هدئى من روعك.

وتغيرت لهجته وقال بعطف:

ـ أنت شاحبة ومضطربة.

ـ وصلتنى رسالة من تارا.. الشماليون على مقربة.. وشقيقتى كارين مريضة.. وحتى لو رغبت فى السفر إلى هناك فلن تسمح أمى خشية أن أصاب بالحمى.

ـ أنت أكثر أمانا هنا.

وتمنت لو يصارحها بحبه لتنتقم منه على سنوات الإذلال.. وأمسك يدها وطبع قبلة صغيرة.. وشعرت برجفة تسرى فى أوصالها.. إنها لا تحبه ولا تعرف ما هذا الشعور الغريب.. ويبدو أنه شعر بحالتها النفسية إذ قال:

ـ سكارليت.. أنت تحملين لى شيئا من المحبة.

فقالت بهدوء:

ـ أحيانا.. ولا سيما حينما لا تتصرف كما...

ولم تكمل فقال:

ـ وهل ستحبيننى ذات يوم يا سكارليت؟

وشعرت أنها قد نالت منه أخيرا فقالت ببرود مصطنع:

ـ لن أفعل حتى تغير من سلوكك وتصرفاتك.

ولكنها صدمها بقوله:

- لن أغير.. كما كنت أتمنى ألا تكونى تحملين لى حبا.. فرغم إعجابى بك إلا أننى لا أحبك.

- لا تحبنى؟!

- سأكون صريحا معك.. لقد رغبت فيك منذ اليوم الأول أكثر من أية امرأة أخرى.

- هل تريد أن تتزوجنى؟

فأفلت يدها وقال:

- أوه يا سكارليت ألم أخبرك من قبل.. إننى لا أفكر فى الزواج نهائيا.

- ولكن.. لماذا؟

فوضع يده على قلبه.. وانحنى وهو يقول بأدب تمثيلى:

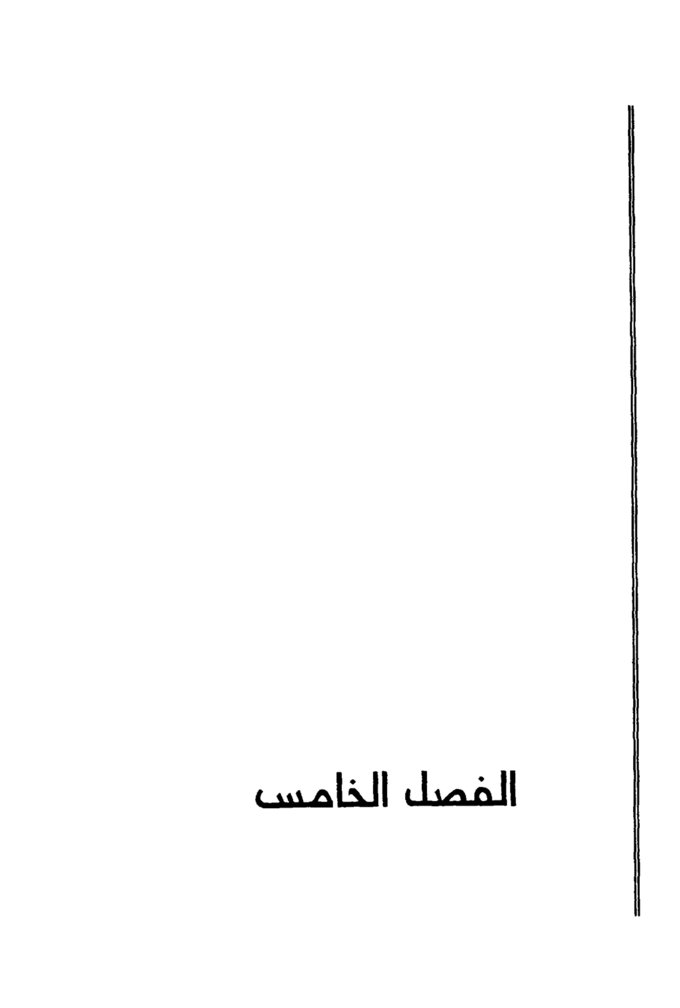
- عزيزتى.. ما أريده منك وبكل صراحة أن تكونى عشيقتى.

فتراجعت للوراء وهى تصيح:

- عشيقة!

واحتقن وجهها.. وصاحت:

- اخرج.. اخرج ولا تعد هنا ثانية.



الفصل الخامس

ووصلت رسالة أخرى من تارا: "بنيتى.. والدتك وشقيقتك أصيبتا بالتيفوئيد وهما فى حالة سيئة.. صلواتك من أجلنا".

ومضى أسبوع على هذا الرسالة دون جديد.. وسرت أنباء بأن أقوى المعارك تدور الآن فى تارا.. وكانت أصوات الدوى تأتى من الجنوب حيث تارا.

وتوجهت سكارليت نحو غرفة ميلانى وفتحت الباب.. ونظرت إلى ميلانى المستلقية والتى نظرت إليها وابتسمت فى شحوب وهى تقول:

- عزيزتى.. أعلم مدى قلقك.. ولولاى لكنت الآن فى تارا.. أنت طيبة جدا يا سكارليت.. وأريد منك أن تعتنى بطفلى من بعدى.

- أوه لا تقولى هذا يا ميلانى.. كل امرأة حامل تعتقد أنها ستموت لا سيما فى أول مرة.. اسألينى عن هذا.

- أشعر بالآلام منذ الصباح.. ولكنها ليست حادة.

- سأرسل الخادمة بريسى فى طلب الدكتور ميد.

- لا تفعلى.. فهو منشغل جدا.. من الأفضل أن ترسلى للسيدة ميد.

* * *

وبعد قليل عادت بريسى.. وصاحت فيها سكارليت:

- أين هى؟

- لم تكن فى منزلها.. قالت الطباخة إنها ذهبت لإحضار ابنها فيليب بعد أن سمعت بأنه جرح.

- اذهبى إلى منزل السيدة ميرى ويذر.

- لا أحد بالمنزل.. بابه مغلق.

وصاحت سكارليت بجنون:

- السيدة إلسينج.. المستشفى.. أخبريها أن السيدة ميلانى ستضع فى أية لحظة.. هيا بسرعة ولا أريد أن أراك وأنت تسيرين كالسلحفاة.

ومرت ساعة كالدهر.. وعادت بريسى وقالت بصوت لاهج:

- القتال على أشده فى جونسبورو يا آنسة سكارليت.. ما الذى سيحدث لو أتى الشماليون؟!

- صه.. أين الدكتور ميد.

- ليس فى المستشفى.. ولم أر السيدة إلسينج ولا السيد ميرى وزر.. الجميع فى محطة القطار لإسعاف الجرحى.

* * *

كان يوما طويلا شاقا.. لم تستطع سكارليت أن تنسى شكل الجرحى الذين افترشوا الأرض فى كل مكان حينما ذهبت إلى المحطة للبحث عن الدكتور ميد.. وحتى الآن فدوى الانفجارات يقرع فى أذنها وأتربه الجو عالقة بأنفها..

المهم الآن أن الوضع أصبح أهدأ.. ميلانى أنجبت طفلها على يد سكارليت وهو الآن فى الحمام مع الخادمة يأخذ حمامه الأول.

وألقت ميلانى - الهزيلة - بنفسها إلى فقدان الوعى.. صحيح أن سكارليت كانت قابلتها ولكنها آلمتها أكثر من أى شيء!

وأفاقت بعد ساعات على وقع أقدام فى الخارج.. وتوجهت سكارليت إلى أصحابها وسألتهم:

- هل ستتركون المدينة؟

- أجل يا سيدتى فالشماليون قادمون.

وأسقط فى يدها ولم تعرف كيف تتصرف.. وتذكرت بتلر وعرفت أنه الرجل الوحيد القادر إلى إخراجهن من هذه الأزمة.. وعلى الفور أرسلت له بيرسى إلى حيث يقيم فى فندق أتلانتا.

- أخبريه أن يحضر بأقصى سرعة ومعه عربته أو عربة إسعاف إن استطاع الحصول على واحدة.

وبعد ساعة عادت الخادمة واندفعت نحو سكارليت وأمسكت ذراعها

بخوف وهى تقول:

- الدنيا فى الخارج كالجحيم.. لقد عثرت عليه ولكنه قال إن الجنوبيين أخذوا عربته وحصانه لنقل الجرحى.

وتهدل كتفا سكارليت يأسا ولكن الخادمة تابعت:

- ولكنه يقول لك لا تقلقى فسوف يسرق عربة وحصانا من الجيش ولو كان آخر حصان وأنه سيحضر إليك حتى لو كلفه هذا حياته.

وأشرق وجهها.. وقفزت من مكانها وراحت تعطى الأوامر وهى تتحرك بسرعة:

- أيقظى الصغير وألبسيه ملابس ثقيلة واحزمى متاعنا ولا تنسى ملابس الصغير.. ضعيها فى الصندوق.

ومرت ساعتان كالدهر.. وأخيرا جاء.

- مساء الخير.. ممم.. إن الطقس جميل فعلا.. قالوا لى إنك تنوين القيام برحلة.

قالها وهو يخلع قبعته تحية لها قبل أن يعتمرها، فقالت بصوت مرتجف:

- إذا عدت لمزاحك فلن أكلمك ثانية.

- لا تخبرينى إنك خائفة.

- بل أموت خوفا.

ـ أنا رهن إشارتك يا صغيرتي.. ترى أين هي وجهتكما.. فأنت لا تستطيعين الذهاب شمالا ولا جنوبا ولا شرقا ولا غربا.. فالشماليون في كل الجهات.

ـ تارا!

ـ يا إلهي العظيم.. تارا!.. قد يكون الشماليون الآن في تارا!

فصرخت بحدة وإصرار وعزيمة وخوف:

ـ سأهب إلى تارا!

وراحت تضرب صدره بلا وعي وهي تبكي وتصرخ فقال:

ـ حسنا حسنا سنذهب.. حتى لو اضطررت أن أحملك على كتفي إلى هناك.

ودون أن تشعر وجدت نفسها بين ذراعيه.. فراح يداعب شعرها بلطف ويقول بلهجة رقيقة:

ـ لا تبكي.. ستذهبين إلى تارا يا فتاتي الشجاعة.

وأحست بالكثير من الأمان وهي بين ذراعيه وتمنت لو تبقى إلى الأبد.. ولكنها تذكرت الوضع فنزعت رأسها وهي تقول:

ـ والآن أين تلك الفتاة الحمقاء.

* * *

أعدت العربة.. بتلر بالمقعد العلوي جوار سكارليت وفي الداخل

ميلانى وقد تمددت وتلفحت مع صغيرها وجوارها بيرسى.. وانطلقوا وسط المدينة المحترقة والمنهارة.. وعندما مروا من بين بضعة جنود جنوبيين حفاة رثي الثياب قال بتلر ساخرا:

ـ انظرى إليهم جيدا لكى تخبرى أحفادك أنك قد رأيت حماة القضية وهم يتقهقرون.

ومن جديد شعرت تجاهه بالكره.. وأكملوا الطريق فى صمت.. وراح بتلر يتنقل من شارع لآخر حتى ابتعدوا وخف عنهم صوت الدوى.. وقال بتلر بعد أن توقف:

ـ الآن نحن خارج البلدة.. هل أنت متأكدة من أنك تريدين الذهاب إلى تارا.. تذكرى أنه عمل انتحارى.

قالت بإصرار:

ـ أكيد.. لماذا توقفت؟!

ـ مهلا.. أخبرينى هل تعرفين طريقا آخر لجونسبورو فمن المحتمل أن الشماليين لم يدخلوها بعد ومن المحتمل أن تستطيعى النجاة.

ـ أستطيع النجاة!!

ـ ....

ـ ألن توصلنا إلى هناك؟

ـ سأضطر لتركك هنا يا عزيزتى.. يجب أن أعود لألتحق بالجيش.

وذعرت.. وظنته يمزح ولكنه بقى جامدا.. فأمسكت بذراعيه وقد سالت دموعها، فتناول بتلر يدها وقبلها وهو يقول:

- أنت أنانية كبيرة.. تفكرين فى سلامتك فقط وتنسين الاتحاد عن عمد.. فكرى كم سترتفع معنويات الجيش عندما أنضم إليهم.

- يجب أن تموت خزيا إذا تركتنا هنا.

- سكارليت.. كونى شجاعة كما عهدتك دوما!

وضمها.. وراح يقبلها كما لم تعهد من قبل.. وتخدرت وهى بين ذراعيه ونسيت كل شىء.. ثم تراجعت وسحبت يدها إلى الوراء وصفعته بكل قوتها وصاحت:

- ابتعد.. ابتعد أيها النذل.. أتمنى أن تسقط قنبلة على رأسك.

وابتعد...

* * *

واستيقظت صباحا.. لم تدر أين هى وشعرت بالغربة.. بعد لحظات أفاقت وتذكرت أنها مختبأة منذ الليل.. نظرت حولها بسرعة وتنفست الصعداء عندما لم تجد أى جنود.. والتفتت إلى ميلانى فوجدتها ساكنة ممدة على الأرض.. اقتربت منها وتحسستها بهدوء ففتحت ميلانى عينيها.. ونهضت لتطمئن على الجواد المنهك وكان مستلقيا على جانبه بجوار العربة.. وراحت تبحث حتى وجدت بئر ماء فشربت وحملت

الدلو وسقت ميلانى وبيرسى والجواد.

كانت الآن على بعد خمسة عشر ميلا عن تارا والموت حولهم فى كل مكان.. ولم يكن يشق سكون الأجواء سوى بكاء الصغير.. وأعدت العربة لإكمال الرحلة.. ولدى المغيب كانت تارا على بعد نصف ميل قبل أن يغرق كل شىء فى الظلام.

ومن قلب السكون تصاعدت ضجة مفاجئة سقطت لها قلوبهن هلعا.. وأخيرا قالت سكارليت:

- إنها مجرد بقرة.

ونزلت من العربة بتثاقل وكأنها فى التسعين.. وتوجهت نحو البقرة وهى تشعر بألم فى كل جزء من جسدها.. ولحسن حظها كانت البقرة هادئة فأمسكتها بهدوء وقطعت جزءا من تنورتها وربطت به قرنى البقرة بمؤخرة العربة.

وأكملت الرحلة بتهالك والجواد يكاد يلفظ آخر أنفاسه.. وعندما اقتربت أكثر من تارا راحت تنظر غير مصدقة إلى جدران المدينة البيضاء التى ما تزال قائمة.. وهللت:

- إنه منزلنا.. تارا نجت من الحرب.. تارا نجت من الحرب.

ونزلت من العربة وركضت المسافة الباقية.. الجو صامت كالقبور ولا دليل على وجود أى أحد.. واندفعت إلى الباب وراحت تطرقه بجنون:

- أبى.. افتح يا أبى.. أنا سكارليت.

وفتح الباب ببطء.. وظهر من خلفه جيرالد.. وتقدم نحوها ببطء وبلا انفعال كأنه يسير نائما.. ووضع يده على كتفها وقال بصعوبة:

- سكارليت!

وعاد من جديد لسكونه، ورأت سكارليت فى أبيها شخصا آخر غير الذى تعرفه فلقد تقدم به العمر أضعاف حقيقته ومات فى وجهه كل نشاط وبريق.

وبرز من خلفه شخص أسود وهو يصيح:

- آنسة سكارليت.

وتقدم منها فأمسكت بذراعه.. كان يورك وقد بكى وهو يربت على كتفيها قائلا:

- أنا سعيد جدا بعودتك.

وسألت أباها:

- هل الجميع بخير؟

* * *

وعرفت أن أمها توفيت بالأمس وأن أختيها فى حالة مرضية شديدة.. أما المنزل من الداخل فكان على عكس ما يبدو من الخارج.. كان خاويا بعد أن أخذ الشماليون كل كبير وصغير فيه.. وهرب الخدم

وانضم بعضهم إلى الشماليين ولم يبق إلا يورك ومامى وديلسى.

- ولماذا لم يحرقوا المنزل؟

أجابها يورك:

- لقد اتخذوه كمقر لهم.

- ألا يوجد أى شىء فى هذا المنزل لكى يؤكل.

- كل شىء أخذوه.

- حتى حقل البطاطا.

- آه لقد نسيت أمره.

- اذهب صباحا إليه وأحضر لنا كمية منه وأعدها.. وأخبر مامى أن تعتنى بالبقرة وتحلبها من أجل الصغير.

- لقد نسيت أن أخبرك أن زوجتى وضعت مؤخرا ويمكنها أن ترضع ابن السيدة ميلانى.

وقررت سكارليت الخروج بنفسها للبحث فى المزارع عن أى شىء.. وتوجهت إلى مزرعة آل وايلكز.. وراحت تبحث بنفسها فى الأرض وهى الفتاة المدللة والتى تعودت أن يخدمها الجميع.. وعثرت على مساحة صغيرة مزروعة بالفجل.. وبسرعة وبيد مرتعشة انتزعت واحدة وراحت تنهشها بجنون بترابها.. وتهيجت معدتها فتمددت أرضا قبل أن تتقيا.. وشعرت بالجوع من جديد فتحاملت على نفسها ونهضت على

ركبتيها وهتفت:

ـ فليشهد الله على.. فليشهد علي الله أنهم لـن يهزمـونى.. سـأتغلب على هذا.. وعندما أنتهي.. فلن أجوع ثانية ولا أى فرد من أهلي حتـى وإن كان على أن أكذب أو أسرق أو أغش أو أقتـل.. فليـشهد علـى الله أنى لن أجوع ثانية.

وتذكرت مـا قالـه لـه والـدها: "الأرض هـى الـشىء الوحيـد الـذى يستحق القتال دفاعا عنه فهى الشىء الوحيد الباقى أبد الدهر".

* * *

ومضى على وجودها أسبوعان.. تقرحت قدماها بـشدة فلـم تـستطع انتعال شىء.. أعمال المزرعة ملقاة على كاهلها وقد غـاب جيرالـد عـن الحياة تماما وكأنه فى حلم.. وكان يقول لها دوما عنـدما تستـشيره فـى أمر:

ـ افعلى ما ترينه أو خذى رأى إيلين.

وهكذا أدركت سكارليت الأمر وهو أن أباها سيظل حتـى آخـر يـوم فى حياته فى حالة انتظار لإيلين.

وذات صباح نظرت من النافذة فرأت شـيئا أراعهـا.. جنـديا شماليـا.. وسمعته يتنقل فى المنزل من غرفة إلى أخرى.. بـسرعة وهـدوء توجهـت إلى الخزانة الصغيرة وتناولت منها المسدس.. المطبخ به وعاء تفـاح وآخـر

خضار جمعوه بدمهم واكفهر وجهها لفكرة أن هـذا الـشمالى سيـستولى عليه.. وهبطت السلم بحذر ومسدسها يسبقها.. وتنبه لها الرجل فصاح:

ـ من هناك؟

وتسمرت سكارليت فى مكانها.. وتابع الرجل:

ـ آه.. إذًا هناك أحياء فى المنزل!

وتوجه تجاهها وتوقف بأسفلها مباشرة وأردف:

ـ هل أنت بمفردك يا صغيرتى؟

وبسرعة خاطفة دفعته فوقع على ظهره وصوبت مسدسها إليه.. وقبل أن ينتزع سلاحه عاجلته برصاصة.. ومات.

وراحت تنظر مشدوهة.. لقد قتلت رجلا.. سكارليت قتلـت رجـلا.. ونظرت لأعلى الدرج فرأت ميلانى.. وكان يبدو على وجـه سـكارليت الشموخ والاعتزاز..

لقد انتقمت لأهلها.

وراحت ـ بكل جرأة ـ تفتش الجثة.. وأخرجت منهـا محفظـة مكتظـة بالمال وبعض البن والبسكويت وعثرت علـى بـروش ألمـاس وسـواريت ذهبيين عريضين وخاتم وزوجى حلق من الألماس أيضا.

وقالت ميلانى بعد أن نزلت بجوارها:

ـ لقد كان لصا.. أنا سعيدة أنك قضيتِ عليه.

وراحت سكارليت تجر الجثة حتى الرواق الخلفى للمنزل.. وكان من الغنائم أيضا حصان الشمالى.

ولم يخبرا أحدا فى المنزل بحقيقة الجريمة وادعيا أن الرصاصة أفلتت بطريق الخطأ أثناء تنظيف السلاح وأن الحصان قد جاء شاردا.

وقررت سكارليت ـ عن طريق الحصان ـ أن تتفقد الجيران لتعرف ما آلوا إليه.. وبدأت بمزرعة آل فونتين لعلها تجد طبيبا ميلانى فى حاجة إليه.

ولاحظت أن الشماليين لم يصلوا إلى ميموزا بسبب بعدها عن الطريق العام فكان آل فونتين يحتفظون بمؤنهم وغذائهم.

وأخبرت سكارليت، الجدة فونتين بما آل إليه وضعهم، وقال العجوز:

ـ هل تقصدين أن السيد جيرالد قد فقد عقله.

ـ إنه يتصرف بطريقة غريبة.. أو يمكنك القول إنه لا يتصرف مطلقا.

ـ حسنا يا عزيزتى.. عودى إلى البيت الآن وبعد الظهر أرسلى يورك بالعربة.

وكذلك رأت آل تارلتون بحالة جيدة وحصلت من العائلتين على بعض الغذاء الكافى ولا ينقصها الآن سوى ملابس جديدة ستبتاعها من غنيمة الشمالى.

وبدأت سكارليت العمل فى حقل القطن وأرغمت يورك ومامى

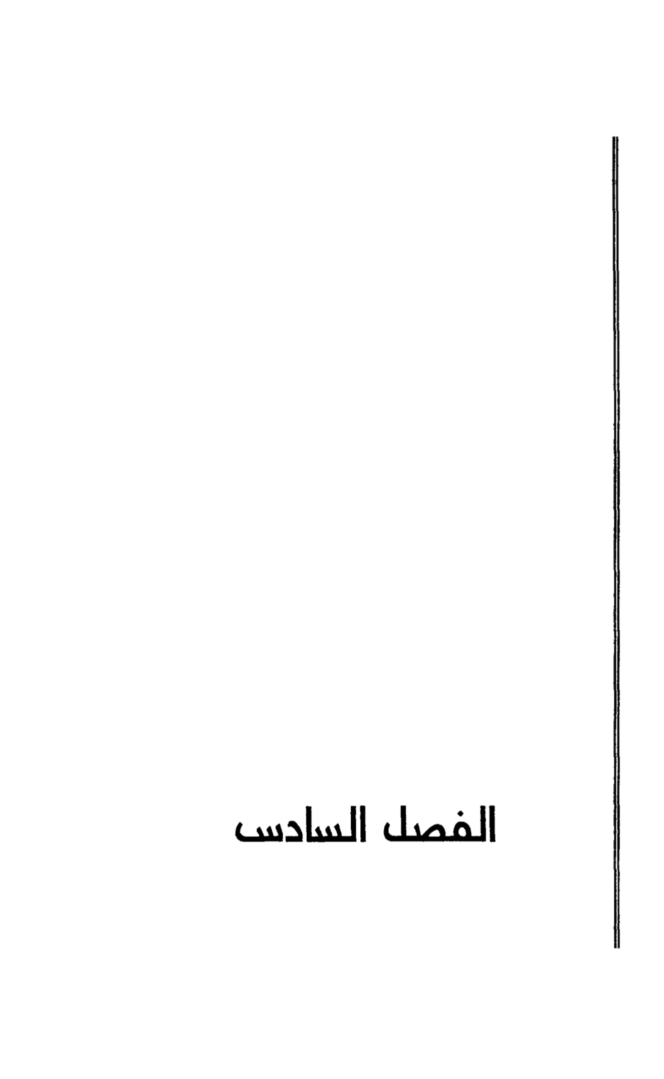
وبريسى على العمل بعد أن امتنعوا بحجة أنهم خدم منازل أما ديلسى فكانت تعمل كآلة فى صمت ودون تذمر.

وقالت لها سكارليت:

ـ لن أنسى لك أبدا هذا الموقف يا ديلسى.. أنت من ذهب.

ونسيت سكارليت تعبها وهى ترى أخيرا القطن ينتقل من الأرض إلى المخزن.. وبدأت تخطط للمستقبل.. ستستعين بمال الغنيمة لاستئجار عمال فى الربيع القادم ومن يدرى فقد تكون الحرب قد انتهت..

فهى تعرف جيدا أن الحروب لن تنتهى من هذه الدنيا.. وتعرف أيضا أن أية حرب لا بد لها من نهاية.



الفصل السادس

وأثناء تناولهم الغداء تناهى إلى أذنهم ضجيج بالخارج وصاحبه صوت سالى فونتن التى دخلت وهى تهتف بهلع:

- الشماليون.. الشماليون قادمون.. لقد رأيتهم وهم فى الطريق إلى هنا.

وسقطت قلوبهم وانخرطت سولين وكارين فى بكاء هستيرى، وصاحت سكارليت:

- يا إلهى.

وسمعوا أصوات جياد تتوقف أمام الباب، وأحدهم يصيح بلهجة آمرة:

- انزلوا هنا.

وتناولت سكارليت، ويد الصغير، بين ذارعيها، واقتحم الشماليون المنزل وراحوا يعيثون فيه فسادا ويفتشون كل جحر، وصعدوا إلى الطابق العلوى وراحوا يمزقون الفرش والأسرة، وتوجه أحدهم إلى سكارليت وقال بحدة:

- اخلعى ما بيدك.

وكانت سكارليت قد نسيت إخفاء الأقراط، فخلعتها بسرعة ورمتها أرضا.

ـ وهذا الذى فى أذنك.

فنزعت الأقراط الماسية التى كانت هدية جيرالد إلى إيلين ليلة الزفاف، وهجم عليها الرجل ودس يده فى صدرها وراح يفتش، ومادت الأرض بسكارليت وحاولت التراجع إلى الوراء ولكن يد الرجل كانت أقوى.. وتناهى إلى سمعها أصوات التحطيم القادمة من أسفل.. وتراجع الرجل إلى الوراء وبدأ يلملم ما ألقته سكارليت.. وصاح قائدهم:

ـ هل وجدتم شيئا ذا قيمة؟

ـ بعد الدجاج والبط وخروفا.

ـ ماذا تنتظرون.. احفروا فى أكواخ الزنوج.

ـ فعلنا.. لم نجد غير القطن الذى أحرقناه.

وتذكرت سكارليت الأيام الصعبة التى قضتها فى الحقول.. وبدأت تشم رائحة الدخان فالتفتت بسرعة وعرفت أنه آت من المطبخ.. هرعت إليه ووضعت الصغير أرضا ولكنها لم تستطع الدخول.. وقفت للحظة وسدت أنفها بتنورتها وعاودت الكرة.. وبنظرة واحدة عرفت أن كل شىء ضاع.

وعندما خرجت نظرت إلى ابنها فوجدته ساكنا مغمض العينين..

انكبت عليه وراحت تهزه وهى تصرخ:

- أوه.. ويد ويد.. يا إلهى!

* * *

وساد السكون فى البيت وكأنه قبر.. أفاق الصغير فأخذته سكارليت فى حجرها وتساندت إلى الحائط جالسة.. وتمتمت:

- فقدنا كل شىء.

فربتت ميلانى على كتفيها وهى تقول:

- المهم أننا كلنا بخير.

فمدت سكارليت يدا مرتعشة فى ثياب ويد الصغير من الخلف وأخرجت المحفظة وراحت تطلق ضحكات متعاقبة، فعانقتها ميلانى بسعادة وهى تقول:

- سكارليت وحدها هى التى تفكر بهذه الطريقة.

وشعرت سكارليت بالكثير من الاحترام إلى ميلانى.. وراحت تفكر فى أنها دوما موجودة بجوارها.

* * *

وعانى الجميع فى تارا من فرط الجوع، وكانت سكارليت ترى حولها العديد من الأيادى الممدودة فتشعر بالغيظ لأنها بحاجة مثلهم إلى الطعام.. وفى ليلة الميلاد وصل فرانك كينيدى فى صحبة مجموعة

من الضباط مشيا على الأقدام الحافية فى محاولة لاصطياد الحيوانات لجنود الجيش.. وكان فرانك هو الوحيد منهم الذى احتفظ بأعضاء جسده سليمة وكاملة.. وأمضى الجنود الليل فى المزرعة وقد شعروا بالسعادة لأنهم يقضون ليلتهم فى بيت فسيح بصحبة نساء حسناوات.

وأسرت سكارليت لأختها سولين:

- هذه الليلة تذكرنى بالأيام الخوالى حين كنا نقيم حفلات السمر.

ولم تنقطع النظرات طوال الليل بين فرانك وسولين، وقال الأول لسكارليت:

- شيرمان أحرق أتلانتا ولم ينج إلا القليل من البيوت بالإضافة إلى الكنائس.. أيضا فالمحلات التجارية أصبحت هى والأرض سواء.

- آه.. وداعا إذًا للمحل الذى تركه لى تشارلز.

- ولكن منزل عمتك لا يزال قائما.. وقد أخبرتنى العمة بيتى أنها عازمة على العودة.. والكثير من النساء أيضا عزمن.

- وكيف لهن أن يعشن فى بيوت متهدمة؟!

وقالت ميلانى:

- لا بد من ذهابى إليها.. لن تستطيع العيش بمفردها فى قلب الخوف.

وحينما اختلى فرانك بسكارليت قال لها:

ـ أعلم أن الوقت ليس مناسبا.. ولكنى أريد طلب يد الآنسة سولين.. وكنت أريد أن أعرف رأيها لاسيما وأنى أكبر منها بكثير.

ـ سيد كينيدى.. يمكننى أن أتولى الأمر نيابة عن والدى.. سأفاتحها فى الأمر الليلة.. انتظرنى فى مكتب والدتى وسوف أرسل لك سولين.

وتمنت سكارليت لو يتم الزواج سريعا.. على الأقل سيقل عدد الأفواه التى تطعمها.

* * *

وانتهت الحرب.. استسلم الجنرال جونستون فى شمال كارولينا فانتهت الحرب.

لم تلق سكارليت بالا إلى الهزيمة وكانت كل ما تفكر فيه هو عودة آشلى وازدهار أعمال الزراعة.

ومرت أيام وأسابيع دون جديد عن آشلى.. وزارهم ـ بعد ظهر أحد الأيام ـ العم بيتر سائق العمة بيتى، وسارعت ميلانى نحوه صائحة:

ـ عمتى بخير؟

وطمأنها عليها وأخبرها أنه أتى لاصطحابها فقالت سكارليت:

ـ ليس قبل سبتمبر حتى نجنى القطن.

والتفت إلى ميلانى وأردف:

ـ لدى رسالة لك يا سيدتى من زوجك.

واتسعت عيناها وفغر فاها قبل أن تفقد الوعى، وتجمدت سكارليت للحظة قبل أن تخطف الرسالة من يد بيتر: "حبيبتى.. أنا عائد إليك".

* * *

وتوافد الجنود على المدينة كالجراد يأكلون كل أخضر ويابس.. وساعدت سكارليت أحدهم ـ يدعى ويل ـ على الشفاء من الملاريا فلم ينس لها هذا وصار ملازما لها وطوع أمرها وخفف عنها الكثير من أعباء المنزل.

لم يكن ويل كثير الكلام وكان كثير التصرف ويعرف كل شيء عن تارا.

وزادت حالة ميلانى سوءا وشخص الدكتور فونتين حالتها على أنها شكوى نسائية ووافقه دكتور ميد بقوله:

ـ ما كان عليها أن تنجب.

وذات صباح نظر ويل إلى نهاية الطريق وقال:

ـ المزيد من الصحبة.. جندى آخر.

ونظرت سكارليت حيث ينظر فرأت شخصا ذا ملامح مألوفة وقد انحنى ظهره ويجر قدميه جرا، وقالت:

ـ لقد انتهت قدرتنا منذ أمد على استقبال الجنود.

ونهضت ميلانى لتنظر، ونظرت إليها سكارليت فوجدتها واضعة

يدها النحيلة على حنجرتها وكأنها تختنق فصاحت وهى تقفز إليها وتمسكها من يديها:

ـ ستفقد الوعى.

ولكن ميلانى ـ وبقوة مفاجئة ـ تخلصت منها وقفزت الدرج وهرعت ويداها ممدودتان..

وأدركت سكارليت الحقيقة..

لقد كان آشلى..

ألقت ميلانى بنفسها بين ذراعيه.. وهمت سكارليت بمتابعة ميلانى ولكن ويل أمسكها من يدها قائلا:

ـ لا تفسدى عليها اللحظة.

فصاحت فيه:

ـ دعنى أيها الغبى إنه آشلى.

فقال ويل برفق:

ـ لا تنسى أنه زوجها.

فنظرت سكارليت إلى عينيه ورأت فيهما الحكمة والعطف.

الفصل السابع

بعد ظهر أحد أيام يناير - سنة ١٨٦٦ - كانت سكارليت فى مكتبها تكتب إلى العمة بيتى حين دخل عليها ويل قائلا:

- كم تبقى لدينا من المال؟

- لم يبق من نقود الجندى الشمالى سوى عشرة دولارات ذهبية.

فصمت لحظة وقال:

- إنها لا تكفى!

- لا تكفى لماذا؟

- الضرائب.. لقد طفت صباحا بحانات جونسبورا وعرفت أن أحدهم ينوى شراء المزرعة بسعر زهيد فى المزاد إن لم تدفعى الضرائب الإضافية.

صاحت:

- ماذا؟! لقد اعتقدت أن كل مشاكلنا انتهت بانتهاء الحرب.

وتهدل كتفاها ونظرت أرضا بيأس، ورفعت رأسها وقالت:

- وكم يطلبون؟

- ثلاثمائة دولار.

وشعرت بغصة كبيرة، وعجزت عن الكلام فقال:

- ما الذى سنفعله الآن؟

- أين السيد وايلكز الآن؟

- فى البستان.

وذهبت إلى البستان.. وكان آشلى يشذب العشب ويبدل السياج.. وامتلأ قلبها بالعطف والألم والحب وهى ترى ما آل إليه آشلى بثيابه البالية والفأس الذى بيده.

وابتدرها بالكلام قائلا:

- يقال إن أبراهام لنكولن بدأ حياته كحطاب.

كانت ترتجف، شعر بمعاناتها فخلع سترته ودثرها وهو يقول بأسى:

- آسف.. لقد فقدت منزلى وكل نقودى وليس بيدى ما أقدمه لك.. وأنا لن أنسى لك أبدا عطفك علينا.. أعتقد أننى جبان يا سكارليت.

- أوه لا تقل هذا.. لقد اعتليت المدافع وحصدت عشرات الأرواح فكيف تقول هذا عن نفسك.

- لم يكن عملا بطوليا ولكنها الحرب التى كالخمر.. تؤثر فى رؤوس الجبناء كما تؤثر فى رؤوس الأبطال.. ففى الحرب إما أن تكون شجاعا أو ميتا.

ـ آشلى.. ما الذى يخيفك؟

ـ الكثير.. فى مقدمتها الحياة.. قبل الحرب كانت الحياة جميلة ولكنى كنت بعيدا عنها وعنك، مفضلا الواقع على جمال الخيال.

ـ وميلانى؟

ـ إنها أكثر الأحلام عذوبة.

ـ لو بقيت على هذا الخوف فسوف نموت جوعا.

وأدركت أنه كان يتحدث عن شىء وهى تتحدث عن شىء آخر.. وأردفت:

ـ آشلى لقد تعبت.. بشدة تعبت.. لنهرب.. أنت تحبنى وميلانى كما تقول مجرد حلم.

فتبسم بهدوء وهو يقول:

ـ هل تتخيلين أنه يمكننى الهروب وترك ميلانى والطفل حتى لو كنت أكرههما.. كيف تظنين بى هذا؟!

قالت باستجداء:

ـ لا يوجد ما يرغمنا على البقاء هنا.

فأكمل عليها:

ـ سوى الشرف.

وبكت.. وأجهشت فى بكائها.. فاقترب منها ووضع رأسها على

صدره وقال هامسا:

- حبيبتى.. حبيبتى الشجاعة.. لا يجب عليك أن تبكى.

وشعر برجفة من جسدها المرتجف بين ذراعيه.. ورفعت وجهها وطالعته شفتاها المرتعشتان.. فقبلها.. بعنف فعل.. وعلى نحو مفاجئ تركها.. فنظرت إليه بعينين دامعتين وهى تقول:

- أنت تحبنى.. قل ذلك.. قلها يا آشلى.

فابتعد وقال وهو يدير وجهه:

- لن يحدث هذا ثانية.. إنه خطأى.. وسوف آخذ ميلانى والطفل وأرحل.

قالت باستجداء:

- آشلى..!

- هل تريدين أن تسميعها صراحة.. حسنا أنا أحبك.

- إن لم تأخذنى فأنت لا تحبنى.

- سكارليت.. أنت لا تفهمين الوضع.

وأجهشت فى البكاء من جديد.. وقالت:

- كل شىء سيذهب.. أنت.. ومن بعدك تارا.

فانحنى أرضا وتناول حفنة تراب ووضعها فى يدها قائلا:

- هذه لا تذهب أبدا.

ونظرت فى يدها.. وبرقت عيناها.. وقالت:

- معك حق.. تارا لا تزال معى.. وأنت لن ترحل.. وأعدك أن ما حدث لن يتكرر ولن أترك أحدا فى هذا المنزل فريسة للجوع.

* * *

وفى المنزل فوجئت بزيارة من كاتب الحسابات القديم جوناس ويلكرسون وقد هبط من عربته الفاخرة مرتديا ثيابا أنيقة، واندهشت سكارليت وهى تراه بهذا الوضع، وقال:

- لقد جئت لزيارة ودية للتحدث فى بعض الأعمال مع أصدقائى القدامى.

فقالت سكارليت بحدة عدائية:

- أصدقاء.. منذ متى ونحن نصادق من هم مثلك.. اغرب.. اغرب عن هذا المكان.

- لا زلت متعجرفة ومتعالية رغم ما أنتم فيه.. حسنا.. لقد أتيت إلى هنا لشراء المزرعة وسوف أقدم لك عرضا مغريا.

فصاحت:

- اغرب.

وبصقت عليه.. ودخلت وصفقت الباب وراءها.. وتساندت وهى تفكر أنه لا بد من جود أحد فى هذه الدنيا يقرضها المال.. وتذكرت

بتلر.. وسارعت إلى غرفة الجلوس وراحت تفكر مع نفسها بصوت مرتفع:

ـ سأتزوج به.. وبهذا سأؤمن حياتى المادية.

وشعرت بأنها قد هرمت.. وشعرت بأنها لا تشعر بشىء.. لا مشاعر ولا أحاسيس.. تفكر وتفكر فقط.. يجب أن تنقذ تارا بأى شكل.

وسرت رجفة فى أوصالها حين تذكرت رده الساخر عليها عندما عرضت عليه الزواج.. لا يهم.. ستكون عشيقته.. لن تكون المسألة سهلة فقديما كان هو الذى يتودد إليها أما الآن فالوضع مختلف.. إنها متسولة.

ونظرت إلى نفسها فى المرآة.. إنها واحدة أخرى غير سكارليت.. ونظرت إلى ثوبها البالى.. وشعرت باليأس.. وأغلقت النافذة وأسندت رأسها ـ يأسا ـ على ستائرها المخملية.. وبعد دقيقة كانت تسحب الستائر معها إلى الخارج.

ـ ما الذى تفعلينه بستائر السيدة إيلين.

هكذا فاجأتها مامى.

ـ سأحيك منها فستانا.

* * *

وعرفت أن بتلر سجين فى مركز الإطفاء بقرب الساحة العامة بتهمة قتل أحد الزنوج، وقد ينتهى به الأمر إلى الشنق..

وبعد يومين كانت فى مركز الإطفاء.

- أريد مقابلة أحد السجناء هنا يدعى الكابتن ريت بتلر.

- أوه بتلر ثانية.. يا له من محظوظ.. هل تقربين له؟

بثقة أجابت:

- أخته.

- هذا الكابتن لديه الكثير من الأخوات.. آخرهن حضرت بالأمس.. أخبرينى باسمك فلقد رفض مقابلة أختٍ له الأمس.

وأخبرته باسمها.. وبعد قليل فتح الباب وظهر بتلر وقال بابتهاج:

- سكارليت.

وتناول يديها.. وشعرت معه كالعادة بالدفء والأمان.. وقبل خدها وضمها إلى صدره.. وبعد أن غادر الضابط الغرفة قال:

- أختى العزيزة.. يا لها من هبة أن تأتى إلى زيارتى.. أنت الشخص الوحيد الذى تذكرنى وزارنى منذ اعتقالى.. متى جئت إلى أتلانتا؟

- بعد ظهر أمس.. أنا حزينة بشدة لما أنت فيه.

- فى الحقيقة لم أتوقع أن تسامحينى على عملى البطولى آنذاك.

قالت بدلال:

- ولكنى لم أسامحك.

- أوه يا سكارليت كم تبدين جميلة.. أخبرينى كيف سارت معك

الأمور؟

- كل شيء بخير.. أنا فقط حزينة على وضعك.. متى ستغادر هذا المكان الكريه؟

- لا أعرف.. وقد أُشنق إذا توافرت الأدلة.

- أوه يا بتلر.. سأموت إذا حدث هذا.

ورفع يدها وراح يقبلها.. ونظرت حيث يقبل فخفق قلبها وهى ترى باطن يدها الخشن ونظرت له فرأت فى عينيه بسمته الماكرة التى تدل على فهمه كل شيء.. فتمتمت:

- ريت!

فترك يديها وهو يقول:

- أخبرينى بالغرض الحقيقى من زيارتك.

وأسقط فى يدها ولم تر فائدة من المراوغة فقالت:

- بحق صداقتنا القديمة.. أريد منك معروفا.

- دعينى أخمن.. هل هو شيء متعلق بالمال؟!

- ليس بالمبلغ الكبير.. فقط ثلاثمائة دولار.

- والسبب؟

- لتسديد ضرائب تارا.

- وفى المقابل ما الضمان؟

- ما تريد.. أقراطى الماسية.. أو أرهن تارا.

- وماذا سأفعل بالأقراط.. ثم إن سعر القطن فى انخفاض.

- أنا بأمس الحاجة إلى المبلغ.

- تعلمين أنى لست مزارعا.. هل لديك عرض آخر؟

فأخذت نفسا عميقا وقالت:

- أنا.. إن كنت لا تزال راغبا فىّ.

ساخرا:

- ولم هذا التنازل العظيم؟!

- لا يمكن أن أخسر تارا طالما بقى فى نفس للحياة.

- إذن توافقين على ثلاثمائة دولار وتصبحين عشيقتى؟

- أوافق.. واسخر منى كما تشاء ولكن أعطنى المال.

- لن أعطيك شيئا.

- أيها الوقح.

- لا أملك سنتا واحدا وليس لدى دولار واحد فى أتلانتا.

واكفهرت.. وصرخت بلا وعى.. فأقبل عليها ووضع يده على فمها وأمسك بالأخرى خصرها.. ولم تشعر بشىء.. ثم ترنحت بين يديه وفقدت الوعى.

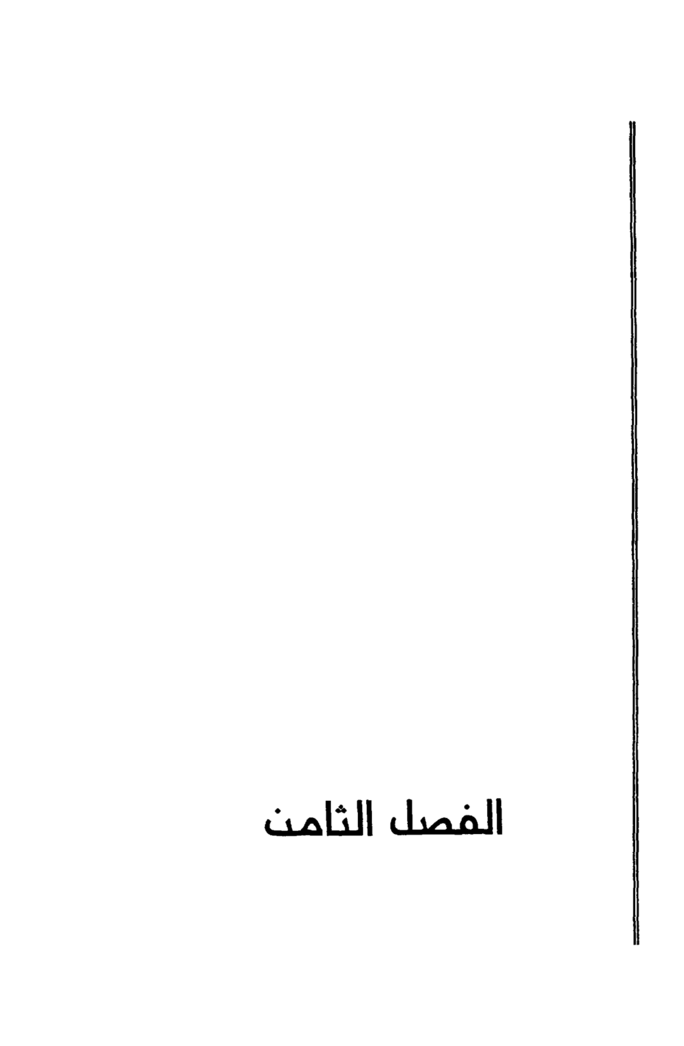
ودخل الضابط يحمل كأسا من البراندى وصب بلتّر جرعـة فـى فـم سكارليت ففتحت عينيها دفعة واحدة وسعلت وقالت:

- اغرب عن وجهى.. اغرب.

- ليتنى أستطيع.. ولكنى محبوس كما ترين.

- إننى أكرهك.. أكرهك.

- إذن ستكونين سعيدة وأنت ترين حبل المشنقة حول رقبتى.



الفصل الثامن

وفى الخارج سمعت صوتا مألوفا يهتف باسمها.

ـ هل هذا معقول.. آنسة سكارليت!

ـ سيد كينيدى!

ـ سعيد برؤيتك.. هل أنت بمفردك؟

كان يفكر فى سولين.. فأجابته:

ـ كلا.

وساعدها على الركوب وهى تقول:

ـ سمعت أنك تعمل فى مارينا.

ـ مقر عملى بها.. ألم تخبرك آنسة سولين أنى أعيش فى أتلانتا؟

فقالت كذبا:

ـ أوه كلا.. لم تخبرنى.

ـ إنى أملك هنا مستودعا للأخشاب.

وعرفت سكارليت أنه يربح جيدا، وفكرت أن تطلب منه اقتراض المبلغ ولكنها تراجعت إذ قد يرفض لأى عذر لاسيما أنه تعب كثيرا

قبل أن يصل لما هو فيه ويريد ـ بسرعة ـ أن يكون مؤهلا للـزواج مـن سولين فى الربيع، وأن يعطيها المبلغ هذا معناه تأجيل للزواج.

ولكن تارا الآن أهم من سولين ومن أى أحد وأى شىء.. والمال يجـب أن تحصل عليه بأية طريقة.. وهكذا بدأت خطتها.

ـ هل تعرف أنى كنت فى مقر قيادة القوات الشمالية.. كنت أعرض عليهم الملابس التى أحيكها لعل أحدهم يشتريها لزوجته.

ـ أوه آنسة سكارليت.. هل يعلم والدك بالأمر.

ـ لا أحد.. ولا حتى عمتى.

وانخرطت فى بكاء اصطناعى.. وراحـت تهمهـم بـبعض الكلمـات لتفهمه منها أن الوضع ليس على ما يرام فى تارا...

ـ يجب أن أفعل شيئا.. ترى من يعتنى بولدى وليس لدينا ما يعين.

ـ لا تقولى هذا يا آنسة سكارليت.. سيسعدنى أن تقيمـى فـى بيتـى مع طفلك بعد أن أتزوج من سولين.

وتوقع منها تعقيبا ولكنها صمتت.. وأظهرت بعض انفعالات الحسرة فقال:

ـ ما الخطب؟

ـ سأكون صريحة.. سولين ستتزوج من تونى فونتين.

* * *

وبعد أسبوعين تزوجت سكارليت من فرانك كينيدى وأقامت معه فى أتلانتا.. وبدلالها عليها حصلت على الثلاثمائة دولار وهو يرى حلمه بورشة الخشب قد تبخر.. ولكن معاملتها اللطيفة وسعادتها بالمبلغ أنسته ذلك.

وعلى الفور أرسلت المبلغ إلى وايل - مع مامى - وطلبت منه إحضار ويد الصغير للعيش معها.

وتلقت سكارليت رسالة قاسية من سولين بسرعة حرقتها حتى لا يراها كينيدى.

وشعرت سكارليت بالحنين إلى تارا ولم تحتمل فكرة النفى كعقاب لها على ما فعلته للأرض.. وفى الوقت نفسه لم تنس لفرانك صنيعه فأحبته بشدة وقررت ألا تجعله يندم على الزواج.

ولزم فرانك الفراش فباشرت سكارليت العمل نيابة عنه، وكانت منكبة على بعض الأعمال الكتابية حين فاجأها بتلر بالدخول قائلا:

- عزيزتى السيدة كينيدى.

وفغرت فاها كأنها رأت شبحا وقالت:

- ما الذى جاء بك هنا؟

- كنت فى زيارة إلى العمة بيتى وعلمت بأمر زواجك فجئت للتهنئة.

ـ من المؤسف حقا أنهم لم يشنقوك.

وجلس على الكرسى المقابل وقال بابتسامة عريضة:

ـ لو كنت انتظرتِ لأسبوعين فقط لما كان هذا وضعك الآن.

ـ وكيف أطلقوا سراحك.

ـ الابتزاز.

ـ هل تملك فعلا ذهب حكومة الجنوب؟

ـ هل تصدقين هذا الكلام؟!

وضحك وأردف:

ـ إننى أملك بعضه فقط.. والآن حدثينى عن فقرك.

ـ أتمنى لو أجمع ما لدينا من مال عند التجار.

ـ مستعد لإقراضك بشرط ألا تنفقى بنسا على آشلى.

ـ آشلى لم يأخذ منى شيئا.

ـ أخبرينى.. كم تحتاجين؟

ـ لا أعرف.. إننى أريد شراء ورشة لنشر الخشب وعربتين وبغلين بالإضافة إلى جواد وعربة للاسنخدام الشخصى.. وفى المقابل سأعطيك نصف أرباح الورشة.

ـ لا أفهم فى هذه النوعية من الأعمال.

ـ ماذا عن فائدة؟

ـ وما الذى سيقوله فرانك المسكين حين يعلم أنك تديرين مشروعا لحسابك وكيف ستفسرين له اقتراض النقود منى.. ألا يسىء هذا إلى سمعته؟!

ـ سأبيعك أقراطى الماسية.

* * *

وباعت الأقراط وابتاعت الورشة.. واستاء فرانك وهو يرى زوجته تقوم بأعمال الرجل.. واستاء الناس أيضا وراحوا يلوكونها بألسنتهم.. وتغيرت معاملة سكارليت لزوجها وذهبت منها كل رقة.. ومع كثرة تردد بتلر على منزل العمة بيتى بدأ فرانك يكرهه بشدة لتدخله فى حياة العائلة.. وحملت سكارليت من فرانك ومع هذا واظبت على أعمالها فى الورشة لتتلقى المزيد من الاستنكار.

وكانت أرباح الورشة موزعة ما بين تارا وتسديد ديون بتلر.. ومع الوقت بات لدى جميع سكان أتلانتا قناعة تامة بأن سكارليت حالة شاذة ولا جدوى من إقناعها بالعدول عما هى فيه.

وقالت عنها السيدة ميرى روز ساخرة:

ـ لن أتعجب إذا أنجبت فى الشارع.

وكانت سكارليت فى العربة مع بتلر الذي يقودها حين سألته:

ـ لماذا يتحاشانى الناس ويتحدثون عنى بطريقة سيئة؟

ـ إن نجاحك فى الورشة لهو إهانة لكل رجل فاشل.

وقررت الذهاب إلى تارا.. وقبل أن تفعل وصلتها رسالة من ويل تحمل خبر وفاة والدها.

* * *

وفى وقت متأخر وصلت إلى جونسبور.. واستقبلها ويل وواساها فى وفاة والدهان وفى الطريق قال:

ـ سكارليت.. بما أنك الآن ربة البيت فثمة أمر شخصى أريد التحدث معك فيه.

ـ قله يا ويل.. أنت لا تعرف كيف هى معزتك لدى.

ـ بخصوص سولين.. أريد التقدم لها.

من فرط دهشتها أمسكت بالمقعد.. وغمغمت:

ـ ولكن يا ويل!

ـ كنت أتوقع ألا تعارضى.

ـ أوه لا.. ولكنى كنت أعتقد أنك تريد كارين.. إنها بائنتين من سولين.

ـ كارين تنوى الالتحاق بالدير فى تشارلستون.

ـ هل تمزح؟!

- أرجو ألا تناقشيها فى ذلك ودعيها تفعل ما تريد.

- حسنا لك كلمتى.. ولكن سولين...

- إنها ليست سيئة كما تتخيلين.. مشكلتها أنها تريد زوجا بأسرع وقت.. وهذا حال كل امرأة.

وأخذت نفسا عميقا وقالت:

- حسنا كما ترى..

وأردفت بعد لحظة صمت:

- كيف حال ميلانى وآشلى.

- سيرحلون عن تارا؟

- يرحلون؟! إلى أين؟

- صديق لآشلى كتب له من نيويورك عن وظيفة شاغرة لمحاسب.

- أوه كلا.

وكانت تعرف أن آشلى إذا ذهب فلن تراه ثانية.

* * *

وقالت سكارليت لآشلى وهو منكب على بعض أعمال الحسابات:

- يجب أن تأتى معى إلى أتلانتا.. أريد من يساعدنى بالورشة.

لم يرفع عينيه.. نهض واتجه إلى النافذة وأولاها ظهره فقالت:

ـ هل لأنى حامل تولينى ظهرك ولا ترغب فى النظر إلى؟!

فاستدار إليها بغتة وحدقها بنظرة حادة خفق لها قلبها وقال:

ـ أنت تعرفين أنك دوما جميلة وساحرة فى نظرى.

وشعرت بسعادة غامرة وقالت:

ـ يسعدنى أن تقول هذا لأنى كنت خجلة منك.

فقال بانفعال:

ـ أنا من يجب أن يخجل.. كان يجب على أن أمنعك من الرحيل.. كان يجب أن أسرق لأوفر لك مال الضرائب.

ـ لم أكن سأسمح لآشلى أن يفعل هذا.. وما حدث قد حدث وأريدك الآن أن تأتى إلى أتلانتا لتساعدنى.

ـ لقد عطفت علينا أكثر من اللازم دون مقابل.. وأنا أريد أن أقف على قدمى من جديد وذهابى معك معناه ضياعى إلى الأبد.

ـ هل تقصد أن الشماليين سيقضون عليك؟

ـ آه نسيت أنك تأخذين الكلام حرفيا.. أعنى أننى سأخسر إلى الأبد حلمى فى الاعتماد على نفسى بالإضافة إلى أسباب أخرى أنت تعلمينها.

ـ لقد وعدتك فى الشتاء الماضى وأنا عند وعدى.

وأجهشت فى البكاء.. ودخلت ميلانى وقالت:

- ما الذى فعلته بها يا آشلى؟

وأسرعت وجلست تحت مقعدها وتناولت يديها وقالت:

- اهدأى يا عزيزتى.. ضعى رأسك على كتف ميلانى وأخبرينى ما الذى يبكيك.

فقالت من بين دموعها:

- آشلى العنيد.

فالتفتت ميلانى لآشلى وقالت بحدة:

- كيف تزعجها وهى فى هذه الحالة ولم يمض على دفن السيد أوهارا إلا القليل.

فقال آشلى:

- كل ما فى الأمر أنها تكرمت وعرضت على العمل معها فى أتلانتا وأخبرتها أنى عقدت العزم على السفر إلى الشمال.

فقالت ميلانى باستنكار:

- كيف تفعل هذا بعد ما فعلته لأجلنا.

فامتقع وجه آشلى قبل أن يقول:

- كما تريان.. سأذهب.. فأنا لا أستطيع الوقوف أمام كليكما.

* * *

وتزوج ويل من سولين وذهبت كاريت إلى الدير وذهب آشلى

وميلانى والطفل إلى أتلانتا وأخذوا معهم ديلسى لتقوم بأعمال الطبخ ورعاية الطفل.

واتخذ آشلى مسكنا فى شارع إيفى خلف منزل العمة بيتى مباشرة بحيث يتصل المنزلان ولم يكن يفصل بينهما سوى سياج مهدم.. وعادت إنديا وايلكز من ماسون لتستقر مع أخيها.

وأصيبت سكارليت بخيبة أمل وهى ترى الورشة تتراجع على يد آشلى بعد أن توقعت العكس..

ولكن حبها له كان كفيلا بأن يخلق عشرات الأعذار.

الفصل التاسع

ووضعت سكارليت طفلة قبيحة صلعاء إلى حد كبير تشبه والدها فرانك وخفف عنها الجيران بقولهم إن الفتاة القبيحة تستقيم مع الوقت حتى تصبح جميلة الجميلات.

وولدت الطفلة فى جو مشحون حيث كانت عصابة كلان تهاجم الزنوج والشماليين.

وكانت سكارليت ـ ذات صباح دافئ ـ تجلس فى شرفتها حين سمعت وقع حوافر فنظرت لترى ريت بتلر متجها نحو بيتها.

شعرت بسعادة لرؤيته إذ كانت تفتقده كثيرا.. وصعد السلم وحيته ـ حين اقترب منها ـ بابتسامة حاولت أن تكون عذبة، وقال:

ـ طفل جديد.. يا للمفاجأة.

ونظر للطفلة فاحمر وجهها خجلا وهى تتوقع سخريته فقالت:

ـ أرجوك لا تكن سخيفا.. أخبرنى كيف أحوالك.

ـ دعينى أولا أحمل الطفل.. إنه نسخة مصغرة من فرانك.

ـ إنها أنثى.

- هذا من حسن الحظ.. فالذكور دوما مصدر للمشاكل.

- أين كنت؟

- كوبا.. نيو أورلينانز.. وأماكن عديدة أخرى.

- أنت تكثر من التّردد على أورليانز وسمعت أن لك عشيقة هناك وتنوى الزواج بها.

وكانت سكارليت تشعر بغيرة غريبة.. فهى لا تحب بتلر ولكنه تغار عليه لاسيما إذا تزوج.. وقال:

- سأتزوج حين تكون هذه هى الوسيلة الوحيدة للوصول للمرأة التى أريدها.. وأنا أتردد على أروليانز بسبب طفل صغير تحت وصايتى.. آه بالمناسبة فلقد كان يجب على ألا أتوقع منك الصدق والمعاملة الطيبة ولكنى وبكل غباء وثقت بك.

- إلام تشير؟

- هل تنسين أنى شرطت عليك ألا تنفقى بنسا على آشلى وها أنا أراه شريكك.

- أوه أنت إنسان سيء جدا.. لقد أخذت نقودك كاملة وهى الآن ورشتى أفعل بها ما أريد.

فقال ساخرا:

- هل تكرمت وتفضلت وشرحتِ لى كيف حصلت على المال لتسديد القرض.

ـ من الأرباح.

ـ أكملى.. من أرباح المال الذى أعطيتك إياه.

ونهض فجأة وقال:

ـ بالمناسبة أخبرى فرانك أن يبقى فى بيته ليلا.

ـ ماذا حدث؟

ـ فقط أخبريه بما أقول.

وانفجر ضاحكا وراح يهبط السلم وامتطى جواده وغادر.

* * *

وفى هذه الليلة عرفت أن فرانك فى اجتماع سياسى ومعه آشلى بعد أن تركها فى بيت ميلانى مع الأطفال.. ثمة ما هو غامض وتعجز عن فهمه.. وبعد فترة سمعوا ضجيجا أمام المنزل، وانهالت طرقات عنيفة على الباب فنظرت سكارليت بخوف إلى ميلانى التى قالت للخادم بهدوء:

ـ آرشى.. افتح الباب.

وفتح الباب.. وظهر من خلفه ضابط شمالى برفقة مجموعة من الجنود.

ـ من منكما السيدة وايلكز؟

ـ أنا.

ونهضت ميلانى فقال:

ـ وأخمن أنه هذه هى السيدة كينيدى.. حسنا.. أريد التحدث إلى السيد وايلكز والسيد كينيدى.

فقالت ميلانى بالهدوء نفسه:

ـ ليسا هنا.

ـ أرجو المعذرة يا سيدتى فأنا لا أقصد الإهانة.. ولكن سأعتمد على كلمتك ولن أفتش المنزل.

ـ لم أقل إلا الصدق والمنزل كله أمامك.

ـ فى هذه الحالة سننتظر بالخارج حتى يعودا.

وانحنى باحترام وخرج.. وراح يصدر الأوامر للجنود بأن يطوقوا البيت.

ومر وقت طويل.. والكل فى قلق وترقب.. وفكرت سكارليت فى بتلر.. وتمنت أن يفعل شيئا لا تعرفه.. وسمعوا صوت الجياد.. وصوت رجل سكير يغنى عرفت فيه سكارليت صوت بتلر.. ولم يكد يكمل المقطع حتى تبعه صوتان آخران يغنيان.. آشلى وهوج إلسينج.

وغضبت ميلانى من آشلى فهى لا تعهده هكذا.. ونهضت.. وسمعوا الضابط يصيح:

ـ هذا الرجلان موقوفان..

وفتحت ميلانى الباب.. وطالعها وجه زوجها السكير الذى يتساند على بتلر السكير وخلفهما هوج السكير.

وقال الضابط:

ـ عذرا يا سيدتى ولكن زوجك والسيد هوج إلسينج موقوفان.

فقالت:

ـ وما التهمة.. السكر؟!

وأفسحت ميلانى الطريق ليدخل بتلر ويضع آشلى على أقرب مقعد.. وصاحت:

ـ كابتن بتلر.. لست مرغوبا هنا.. وأنت يا هوج.. كيف تفعل هذا التصرف المشين.. وما الذى ستقوله والدتك حين تعلم أنك تسكر وتعربد مع نذل صديق للشماليين!

ووضع بتلر يده المترنحة على كتف الضابط وهو يقول:

ـ توم.. لماذا تريد القبض عليه.

ـ إنه والسيد إلسينج متهمان بالاشتراك مع عصابة كلان فى هجوم الليلة الذى أسفر عن مقتل زنجى ورجل من البيض، والسيد وايلكز هو من تزعم هذا الهجوم.

فقال بتلر متعجبا:

ـ هذه الليلة؟!

وراح يضحك.. وتابع:

ـ هذان الرجلان بصحبتى منذ الثامنة.. كان لدينا اجتماعا سياسيا على أعلى مستوى كما ترى.

ـ معك؟! وأين كنتم؟

وقال بتلر وهو يدعى الخجل:

ـ فى.. فى حانة بيل والتنج الرياضى.. كان معنا أيضا فرانك كينيدى والدكتور ميد والكثير من الرجال..

وأردف ساخرا وهو يلوح بإصبعه فى الهواء:

ـ لقد عقدنا حفلا سياسيا ساهرا.

وصرخت ميلانى:

ـ حانة بيل!!

وفقدت الوعى.. وسارعت سكارليت وبيتى لإسعافها.. وقال الضابط:

ـ ريت بتلر.. هل تقسم على ما تقول؟

ـ أقسم.. واسأل بيل نفسها.. والآن دعنى أحمل السيدة وايلكز إلى غرفتها.

ـ ولكن لدى أمر اعتقال.

ـ نفذه فى الصباح.. فلن يستطيعا الهرب وأضف أن هناك خمسين شاهدا على صدق كلامى.

فقال الضابط بحنق:

ـ شهود شهود.. ما أكثرهم.

وغادر.

* * *

وتهاوت سكارليت على أقرب مقعد، ورأت شيئا غريبا علـى مقعـد آشلى فمدت يدها.

ـ دم.. يا إلهى آشلى مصاب.

وقال بتلر الذى لم يعد مخمورا:

ـ وهل ظننت أيتها الحمقاء أنه ثمل.

وبسرعة حمله بتلر حتى غرفة النوم.. وتبعتـه ميلانـى التـى أفاقـت من إغمائها الوهمى ـ وراحت تقص قميص آشلى المبلل وسـألت بتلـر بجزع:

ـ هل حالته سيئة؟

ـ ليس أكثر من أن فقد الوعى بـسبب النزيـف ولكنـه سيعيش.. آه سكارليت اقتربى.. خذى المصباح من آشلى لأن لدى مهمة له.

وقال لآشلى:

ـ جوادى بالخارج.. خذه وانطلـق بـه إلى مزرعـة سـوليفان القديمـة.. ستجد ثيابا فوق المدخنة.. أحرقها.. وثمة جثتا رجلين فى القبو.. خذهما حتى الباحة الخلفية لحانة بيل وضع مسدسا فى كـل يـد وأطلـق منـه رصاصة حتى يبدو الأمر كأنه مبارزة.. هل تفهم ما أقول؟

وقال لميلانى:

ـ أرجو العذر يا سيدة وايلكز...

فقالت له وهى تنظر له بابتسام وإعجاب:

ـ أوه كابتن بتلر لا تقل هذا.. كما أن من دواعى سرورى أن تنادينى ميلانى فأنت أكثر من أخ.. وأنا عاجزة عن شكرك.

ـ بل الشكر لك.. ومن المؤسف أن أقحمت اسم السيد وايلكز بحانة ويل ولكنى كنت مضطرا، وعلى كل حال فإن بيل وفتياتها على استعداد للشهادة بأننا كنا موجودين فعلا.

ـ أوه أنت عبقرى يا كابتن بتلر.

ـ الآن دعينى أوضح لك ما حدث.. فعندما ذهبت إلى مزرعة سوليفان وجدت السيد وايلكز مصابا ومعه هوج والدكتور ميد والسيدة ميرى روز مختبئين من الشماليين فأخذتهم إلى حانة بيل عبر الطرق الخلفية وشرحت لبيل الموقف وأعطيناها قائمة بالأسماء التى ستقول إنهم كانوا عندها.

وقالت له سكارليت:

ـ وفرانك.. هل كان معكم.

فنظر لها بتلر لبرهة دون كلام.. ثم قال:

ـ للأسف كلا..

وصمت برهة أخرى.. وتعلقت به عيون الجميع.. وتابع:

ـ لقد أصيب بطلق نارى فى رأسه أودى بحياته على الفور.

الفصل العاشر

وبعد شهر زارها بتلر - الذى لم تكن رأته من ليلة إعلان الوفاة - وكالعادة شعرت بحنين إليه، وجلسا فى غرفة الجلوس وقال:

- هل يمكن أن أغلق الباب علينا؟

فأومأت إيجابا، فأغلقه، وقال:

- ما الخطب يا عزيزتى.. ما الذى يضايقك؟

وتناول يديها برقة وأردف:

- المسألة أكبر من حزنك على وفاة فرانك.. هل أنت بحاجة إلى المال؟

- إنى خائفة جدا يا ريت.

- سكارليت تخاف؟! لم أعهدك هكذا أبدا.

- أخاف من الموت وما بعد الموت بسبب ما فعلته بفرانك.. أنا السبب فى أن يلتحق بعصابة كلان.. لقد دفعته ليفعل ما لا يحب.. أوه كم أنا سعيدة أن والدتى ميتة كى لا ترى ابنتها على هذا الوضع.

وبكت، وتابعت:

ـ إننى خائفة.. كل يوم أحلم أنى عدت إلى تارا لأجدها خرابا من جديد ونعانى من الجوع والبرد.

وأخرج منديلا نظيفا ناوله لها وهو يقول:

ـ هونى عليك.. امسحى دموعك ولا تخافى من شىء.. كما أن لدى أخبارا مسلية.. سوف أسافر.

ـ تسافر.. إلى أين؟

ـ إنجلترا.. وقد أمكث عدة أشهر.

وصمت.. وبدا عليه أنه يهم بقول شىء.. فصمتت انتظارا له.. وأخيرا قال:

ـ سكارليت.. بما أن فرانك قد مات فأرى من المناسب أن تعرفى..

وسحبت يديها وتراجعت إلى الوراء واقفة وقالت:

ـ أنت لا تتغير أبدا.

ـ لقد أسأت فهمى.

ـ لا أحد يفهمك كما أفعل.. ارحل عن هنا حالا.

ـ أنا أطلب منك الزواج.

ودهشت.. ونظرت له غير مصدقة فقال:

ـ هل تريدين أن أركع على قدمى؟!

وانهارت على المقعد وهى تنظر إليه لتتأكد أنه فى كامل وعيه،

وقال:

- لقد كنت دوما أسعى للوصول إليك بطريقة أو أخرى.. وبما أنك الآن لست فى حاجة إلى المال فلن يكون هناك غرض لرؤيتى.. لهذا فأنا أريد الزواج بك.

- بتلر.. هل هذه مزحة جديدة؟

- أنا أعرف أنه ليس الوقت الملائم.. ولكنى أخشى أن أسافر وأعود فأجدك وقد تزوجت.

كان يتكلم بجدية وزال منها كل شك أنه يمزح.. فقالت بتلعثم:

- لن أتزوج ثانية.. ودعك أيضا من أنى لا أحبك.

- لم يكن الحب رابطا بينك وبين زوجيك السابقين.. خذى وقتك وفكرى فى طلبى حتى أعود.

- لقد قررت العودة إلى تارا...

وبسرعة - وبطريقة مفاجئة - ركع على ركبتيه، ووضع يده اليمنى على قلبه وقال:

- إن ما فى قلبى من صداقة قد تحول إلى حب.. وسوف أطيع هذا الحب حتى ولو اضطررت أن أحمل قيثارتى وأبيت الليالى تحت نافذتك أغنى لك بأعلى صوت حتى أسىء إلى سمعتك فتضطرين إلى الزواج بى حفاظا على شرفك.

ونهض، واقترب منها، وللحظة راحت تقارن بينه وبين آشلى.. لا أحد مثل آشلى.. واقترب أكثر.. وانهال عليها يقبلها.. استسلمت وقد نسيت كل شيء.. وقالت:

- توقف.. سأفقد الوعى.

- قولى إنك موافقة.

- موافقة.

- والآن أخبرينى بالحقيقة.. لماذا وافقتِ.. هل من أجل المال؟

- ممم.. إنه أحد الأسباب.

ولم ينزعج، فتابعت:

- أنت تعرف يا ريت أن المال ضروري وبالطبع أنا معجبة بك.. ولكن لو قلتُ إني متيمة بك فستعرف أني أكذب.. أنت نفسك قلتَ أن هناك أشياء مشتركة بيننا.

- والآن ما الذى تحبين أن أحضره لك من إنجلترا؟

فلمعت عيناها واتسعتا وضمت يديها قائلة:

- أريد خاتما كبيرا من الألماس.

فارتدى قبعته وهو يقول:

- سيكون لديك ما طلبت.

وغادر.

* * *

وأحضر لها خاتما كبيرا لدرجة أن سكارليت خشيت أن تتزين به كى لا تسمع تعليقات الناس.

وعندما أعلنت خطوبتها ثارت عاصفة من الاستنكار حول المزيد من سلوكها المشين.

وأكثر ما أغضبها كان كلمات مامى:

ـ لقد ارتكبت من الحماقات ما لا حصر له.. وهذه الحماقة هى أشدها على الإطلاق.

فتمالكت أعصابها وردت عليها بهدوء:

ـ سأتزوج من أريد، ولا تنسى وضعك الحقيقى هنا يا مامى.. وعلى كل حال لقد قررت أن أرسلك إلى تارا.

ـ إنى امرأة حرة يا آنسة سكارليت ولن يجبرنى أحد على الذهاب إلى أى مكان وسأبقى هنا إلى جوار ابنة السيدة إيلين.. أما بتلر هذا فما هو إلا بغل فى إسطبل للجياد.

وأثناء شهر العسل فى أورليانز قالت سكارليت لبتلر ما قالته مامى عنه.. واندهشت لرد فعله.. إذ راح يقهقه.

وابتاعت سكارليت العديد من الهدايا للكل ، وسألها بتلر:

ـ ترى ما الذى ستحضرينه لمامى؟

ـ وما الذى يدفعنى إلى شراء شىء لهذه البغيضة بعد أن وصفتنا

كالبغال.

- ولما تنزعجين من الحقيقة يا عزيزتى.. يجب أن تحضرى لها هدية وإلا تحطم قلبها.

- لن أفعل.

- إذن أفعل أنا.

وكانت سكارليت تكتشف كل يوم أن الزواج من بتلر مختلف عن حياتها مع تشارلز وفرانك.. كانت تحترمه وتخشاه أما هو فيعاملها ببساطة ويفعل ما يحلو له دون أن يعبأ بأمرها.. وصحيح أنها لم تكن تحبه ولكنها كانت تجد متعة كبيرة فى العيش معه.. كانت تجد معه الراحة.. وكان دوما على استعداد لتقديم أى شىء لها بشرط أن تكون صادقة.. ولكنه كان يجد لذة فى كشف خداعها فتكون فرصة ليغمرها بالمزيد من السخرية!

وفاجأته ذات يوم بما فوجئت به:

- أنا حامل.

وأردفت:

- أنت تعرف أنى لا أريد المزيد من الأطفال.. وأنت فقط تكتفى بالضحك.

فقال دون أن يعنى:

- أعطيه للسيدة ميلانى.

- أيها النذل الحقير.. أريد أن أقتلك.. أنا لا أريد هذا الطفل.

- بل ستنجبين الطفل.. حتى ولو فى المقابل قيدتك لتسعة أشهر كاملة.

* * *

وأنجبت طفلة.. ورغبت ميلانى لو أن تنجب طفلة أيضا ولكن الدكتور ميد حذرها من أن حالتها الصحية لا تتحمل.. وفرح بتلر وقال لمامى حين تعجبت من سعادته:

- الذكور ليس وراؤهم إلا المشاكل.

وبدأ الجميع يشعر بالتغير الذى طرأ على شخصية ريت منذ أن أصبح أبا.. كان سعيدا بالطفلة ويتفاخر بجمالها أمام جميع الزوار.. وشعرت سكارليت أنه ليس من (الرجولة) أن يظهر حبه لابنتهما بهذه الطريقة.

وقالت له عن ذلك:

- أنت تجعل من نفسك أحمق، ولا أعرف لماذا؟!

- إنها الشخص الوحيد الذى ينتمى إلى بصورة كاملة.

- لا تنس أنها ابنتى أيضا.

- أنت لديك ابنك.

ـ ولكنى أنجبتها.. كما أنى أيضا ملكك.

فنظر إليها بريبة وقال:

ـ هل تعنين ما تقولين؟!

ودخلت ميلانى لتفض شجارهما ـ كعادتها ـ لينتهى الموقف بضحك الجميع.

* * *

وذهبت ذات يوم إلى الورشة، وهناك قابلت آشلى الذى استقبلها بسعادة.. ولكن جزءا كبيرا من سعادتها زال عندما نظرت إلى الدفاتر!

وقال:

ـ آسف يا سكارليت.. وكل ما يمكننى قوله أن أستأجر زنوجا أحرارا بدلا من المحكوم عليهم.

ـ ولكن أجورهم سترهقنا.

ـ لا أستطيع تسخير الرجل.

ـ أنت طيب القلب يا آشلى.. وهذا لا ينجح فى العمل.

ـ يبدو أن ريت بتلر حولك إلى إنسانة مادية قاسية.. وكم كنت أتمنى أن تكونى زوجة لأى رجل ما عدا بتلر.. أعرف أنه ليس لى الحق فى...

ـ لا تقل هذا يا آشلى أنت الوحيد المسموح له بقول أى شىء.

ـ لا أتحمل يا سكارليت أن أراك وأنت تتحولين من الرقة إلى القسوة.. ولا أتحمل أن أرى سحرك وهو ملك لرجل آخر.. وكلما تخيلت وهو يلمس شعرك... آ:..

وظنت أنه سيقبلها فمالت إليه ولكنه ارتد بسرعة.. وقال:

ـ أعتذر فليس لى الحق فى انتقاد زوجك ولكن...

ولم يكمل.. وفضل الاختباء فى أوراق العمل.

* * *

وعادت إلى المنزل مشحونة.. وقررت أن تخبر بتلر بأن يكون لكل منهما غرفته الخاصة.. وقالت له بمجرد أن دخل عليها:

ـ بتلر اسمعنى جيدا.. لا أريد المزيد من الأطفال.

ـ كلامك هذا يعطينى حق الطلاق.. ودعينى أخمن.. لقد ذهبت إلى الورشة.. حسنا يا سكارليت أنا أفهمك جيدا.. وكونى على ثقة بأن أبواب الدنيا لن تمنعنى عنك إذا ما أردت.

ـ هل هذا معناه أنك لم تعد تهتم بى؟!

ـ يبدو أنك مللتِ منى.. حافظى على فراشك بالطريقة التى تريدينها.. فالعالم ملىء بالأسرة المليئة بالنساء.

وأولاها ظهره ليعلن نهاية النقاش..

وراح بتلر يخطط لزرع مكانته فى المجتمع عن طريق التبرعات

والعلاقات الطيبة وبناء المدارس كما تجنب أصدقاء السوء القدامى وكذلك الضباط الشماليين وواظب على حضور اجتماعات الجمهوريين وصوت لصالحهم وأخيرا ترك لعب القمار وتخلى عن الذهاب - بشكل علنى - إلى حانة بيل.

ومنذ أن استطاعت طفلته المشى راح يصحبها فى جولات صباحية - من قلبه يفعل هذا - وهو يلقى التحيات على من يعرفهم ومن لا يعرفهم وكان لا يمل أسئلة الصغيرة ويجيب عليها بصبر.

وتغيرت صورته فى أعين الناس وصرن يستقبلنه بود ويحيينه ببسمة عريضة حتى أن النساء اللاتى ظنن أن امرأة لم تسلم منه كن لا يجدن حرجا فى أن يقفن معه لتبادل الأحاديث الاجتماعية.

* * *

وقررت ميلانى أن تقيم حفل عيد ميلاد لآشلى بطريقة مفاجئة فوجهت الدعوات إلى كل المعارف.. وحضرت سكارليت لتعد للحفل - مع ميلانى وإنديا والعمة بيتى - وبعد أن انتهين قالت سكارليت:

- يجب أن أذهب الآن.

وكانت تشعر بسعادة من هذا الحدث، وتوجهت إلى الورشة فاستقبلها آشلى ببسمة صغيرة ودخلت أمامه وجلست على مقعد المكتب وتبعها آشلى وجلس على المقعد المقابل وقال:

- كل يوم تزدادين جمالا.

وشعرت سكارليت بشىء غريب.. كلمة كهذه فى الماضى كانت تثير مشاعرها أما الآن فهى لا تشعر إلا بأنه صديق.. وقالت:

- كان هذا فيما مضى.. لقد تقدم بى العمر يا آشلى.

- لقد سرنا رحلة حياة طويلة غير متوقعة.. أنت تتقدمين وأنا أسير الهوينى رغم ما تقدمينه من مساعدات.

- ولكن لم أقدم لك شيئا يا آشلى وكان يمكنك التقدم بدونى.

- لولاك لكنت ضائعا.

- لا تتكلم بهذا الحزن والأسف يا آشلى.

- فيما مضى كنت حزينا أما الآن...

ولم يكمل.. وللمرة الأولى شعرت آشلى أنها تفهم ما يجول بذهنه.. إنه يائس من كل شىء.

- الآن أفهم لم لا تشعر بأى شىء.

وتذكرت أحلامها الضائعة ويأسها من عودة أى شىء.. وبكت.. وراحت تنظر له بيأس.. فنهض فى صمت واحتواها برفق..

حدث هذا فى اللحظة التى دخلت فيها إنديا والخادم آرشى والسيدة إلسينج.

الفصل الحادى عشر

ولم تدر كيف عادت إلى المنزل.. تعرف جيدا أن الخبر فى الغد سيكون قد انتشر.. وشعرت بغيظ شديد لأن المرة الوحيدة التى رُؤيا فيها لم تكن مذنبة.. على الأقل ستكون التهمة فى محلها..

ودخلت إلى فراشها والأفكار تعصف بها.. ترتجف.. تفكر فيم ستفعل وما ستقول.. ودخل عليها بتلر.. ونظرت إليه.. تعرف أنه ذكى ولكن ماذا يخبئ وراءه.

- هل أنت مستعدة للذهاب إلى الحفل.

- أوه أشعر بصداع.. اذهب أنت واحمل لميلانى اعتذارى.

فقال بحدة:

- انهضى.. سنذهب.

فاتسعت عيناها.. كانت تعرف أنه عرف.. وقالت فى محاولة يائسة:

- هل تجرأ آرشى وقال...

- تجرأ وقال الحقيقة.

- يجب عليك قتله لافترائه علىّ.

ـ لا وقت للجدال.. انهضى.

ـ لن أذهب حتى تتضح حقيقة الموقف.

ـ إذا لم يرَ الناس سكارليت هذه الليلة فلن تتمكنى من هـذا طـول حياتك.

وأردف بحدة:

ـ انهضى.

* * *

واندهشت سكارليت من استقبال ميلانى لها.. بحفاوة وبسمة واسـعة وقالت لها بصوت هادى:

ـ ما أجمل فستانك يا عزيزتى.. أوه للأسف لقد اعتذرت إنـديا عـن عدم المجىء.. هل تساعديننى فى استقبال الضيوف؟

* * *

وعادت سكارليت لغرفتها ورأسها يتخبط من رد فعل ميلانى.. لقـد تجاهلت الفضيحة بل وتعمدت أن تكون بقربها طـوال الليـل لتحميهـا من عيون الناس.. كيف يكون من قتلته محاميا لها..

وتوترت بشدة.. يجب أن تتجرع شيئا.. أسـرعت إلى غرفـة الطعـام.. وهناك وجدت بتلر ثملا:

ـ أوه سيدة بتلر.. هيا هيا.. تعالى واشربى شيئا.

يتحدث كأنه رجل غريب.. تعرف أطواره الغريبة ولكنه هذه المرة غير كل مرة.. وقالت فى محاولة للتخلص منه:

ـ أنت ثمل ويجب أن أنام.

ـ اجلسى.

قالها بحدة ألقت الرعب فى قلبها.. وأردف:

ـ ما حدث الليلة كان مهزلة ولا شك.. ترى كيف كان شعورك وأنت ترين المرأة التى تكرهينها تقف إلى جانبك.

ـ لن أستمع...

ـ بل ستصغين.. صحيح أن السيدة ميلانى طيبة ولكنها ليست كما تظنين.. بالتأكيد أحدهم أخبرها ولكنها استبعدت حدوث ذلك.. فهى بها من الشرف والوفاء ما يجعلانها تستبعد حدوث ذلك ممن تحب.. وهى تحب آشلى كما تحبك أيضا.

ـ لو كنت فى وعيك لشرحت لك ولكنك تكتفى بسلاطة اللسان.

ـ لقد منعت نفسك عنى فى الوقت الذى تلاحقين فيه حبيب القلب آشلى.. وأعتقد أنك لا تمانعين من الإنجاب منه لتنسبيهم لى.

وصرخت وانتفضت من مقعدها فهجم عليها وأجلسها بالقوة، وانحنى فوق رأسها وقال:

ـ لطالما أحببتك يا صغيرتى.. لاسيما وأنت محاصرة الآن.

- لست محاصرة ولا يمكن لأحد أن يفعل.. كما أنى لا أخاف منك فأنت لست سوى نمل نشأ فى القذارة وبين القذرين ولن يمكنك أبدا أن تفهمنى ولا تفهم آشلى.

وأمسك يديها بقوة وألصقها بالحائط وهو يقول:

- لا تحاولى أن تشرحى شيئا فأنا أعرف جيدا أنك لم تخونينى بجسدك.. ليس لأنك شريفة.. ولكن لأن آشلى شريف.

وقالت وهى تحاول التملص منه:

- دعنى.. لا أريد البقاء هنا والاستماع إلى إهاناتك.

ولكنه استمر:

- الفرق بينى وبينك أنك تريدين شراء رجل بعقلك بينما أنا أشترى أجساد النساء بسهولة.. لكم أشعر لك بالأسى.

- هل أنت آسف من أجلى حقا؟!

- أجل.. فأنت طفلة ولا تريدين أن تدركى ذلك.. طفلة تبكى تريد القمر.. وحتى لو حصلت عليه فماذا ستفعلين به.. أنا آسف لأجلك حقا فأنت تفرطين فى السعادة المضمونة وتبحثين عن الوهم.

وفجأة حملها.. وراح يصعد بها الدرج.. وصرخت وهى تحاول التخلص منه ولكنها كانت طفلة فى يد عملاق.. وتوقف.. وراح يقبلها بعنف وعشوائية.. وغابت فى بئر مظلمة.. ولم تشعر إلا بشفتيه

الغليظتين.

* * *

وفى اليوم التالى خرج ولم يعد.. وفى اليوم التالى لم يعد.. توترت وعاملت الجميع بعصبية.. وفى اليوم الثالث وجدته يدخل عليها غرفتها بوجه حليق وعينين منتفختين من أثر الشرب.. وقال بمرح:

ـ مرحبا.

كانت تشعر بالقلق ولكن كرامتها منعتها وقالت بحدة:

ـ أين كنت؟

ـ لا تدعى أنك آخر من يعلم.

ـ هل كنت...

ـ أجل كنت.. إننى أعيش معها منذ أن قررتِ أن تكون لى غرفة، ولك أنت وآشلى غرفة.

ـ اخرج.. اخرج.. بدءا من الآن سأغلق على بابى.

ـ سأخرج.. وستحصلين على الطلاق.

فاتسعت عيناها وقالت بغضب:

ـ لن أجلب العار لأهلى بالطلاق.

فقال بلهجة ذات معنى:

ـ ولكنك لن تتأخرى عن ذلك إذا ما توفيت السيدة ميلانى..

- اخرج.. اخرج.

- سأفعل.. ولهذا جئت.. سأسافر إلى تشارلستون ونيوأورليانز في رحلة طويلة.. ولم آتِ إلا لآخذ بونى معى.

- ابنتى لن تغادر هذا البيت إلى أى مكان.

- إنها ابنتى أيضا، يا سيدة بتلر.. هلا أخبرتنى ما الذى تعرفينه عن تربية الأطفال.. دعينى أفكر.. حسنا.. لا شىء.

وهمت بالكلام ولكنه غادر الغرفة بحدة.

* * *

ومضى على سفر ثلاثة أشهر دون أن تعرف عنه شيئا.. لم تجد لها رغبة فى الذهاب إلى الورشة ولا إلى أى مكان.. وعاودها الحنين إليه وهى تشعر بالوحدة.

وأخبرها الدكتور ميد بأنها حامل.. صعقت قبل أن تشعر بالسعادة لأول مرة من أنها ستنجب.. وتمنت أن يكون ذكرا وشعرت برغبة فى الكتابة إلى ريت عن طريق والدته فى تشارلستون ولكنها تريثت.. فلو علم باحتياجها إليه سيسخر ولا شك.

وذات صباح فوجئت بعودته وبهتاف بونى:

- ماما.

وأخذت ابنتها بين ذراعيها.. ووقف بتلر ينظر حتى انتهت.. وعندما

نظرت إليه شعرت بسعادة كبيرة.. ووقفت تتساند إلى حاجز الدرج وهى تنتظره.. ولكنه لم يتقدم.. واكتفى بأن قال:

- ما هذا الشحوب.. هل هو بسببى؟

وغابت البسمة من عينيها وتحولت إلى حنق وهى تقول:

- أجل شاحبة بسببك.. فأنا حامل.

- هذا خبر عظيم.. ومن هو الأب سعيد الحظ.. آشلى؟!

ورغم معرفتها به لم تتوقع هذه الإهانة.. تساندت على الحاجز بينما أردف:

- الإجهاض عملية سهلة.

ومادت بها الأرض.. وترنحت.. وقبل أن يمسكها كانت قد سقطت على درجات السلم كلها.

* * *

وكانت هذه المرة الأولى التى تكون فيها سكارليت طريحة الفراش.. انكسر لها أكثر من ضلع وجرحت فى رأسها ولأول مرة تشعر بالآلام الجسدية المبرحة.

وفى خضم آلامها راحت تسأل عن ريت.. وراحت تهذى به فى غيبوباتها.

وكان ريت فى غرفته.. جالسا على حافة السرير ثملا.. وأمامه

ميلانى تحاول التخفيف عنه.. حالته مزرية وغرفته أيضا.. قالت له:

- آسفة أن أقولك لك إن حالتها تزداد سوءا.. إنها تهذى باسمك.. ولكن ستتحسن فهون عليك.. دعنى أحضر لك قهوة وطعاما وإلا مرضت.

كانت ميلانى تشفق عليه أكثر من حالة سكارليت.. وأخيرا قالت له ذات يوم:

- لقد تحسنت كثيرا.

فأشرق وجهه قليلا وهو يقول:

- أوه يا إلهى.

وأغرق وجهه فى كفيه.. وراح يبكى.. وذعرت ميلانى وتأثرت كثيرا لبكائه.. إنها لم تر رجلا يبكى من قبل ولاسيما بتلر الذى تراه أقوى الرجال.. وراح يردد:

- قتلتها.. أنا الذى قتلتها.

- هون عليك.

- لقد سخرت منها وقلت لها أن تتخلص من الجنين.

وصدمت ميلانى وهى تسمع هذا الكلام.. وبسرعة سيطرت على ملامحها وهى تقول:

- هل تصدق تلك الإشاعات الحمقاء حول آشلى وسكارليت؟ أنت

ولا شك تمزح!

ـ أنت أكثر طيبة من أن تفهمى مثل هذه الأمور.. إنها لم تحبنى فى حياتها ويبدو أنى كنت واهما حين ظننت أنى قادر على جعلها تهتم لأمرى.. إنها فقط تحب.. تحب.. هل ستصدقينى إذا أخبرتك؟

ـ لن أصدقك.. وسكارليت ستتحسن.. ويعود كل شىء لطبيعته.

وتحسنت حالة سكارليت..

وفقدت الجنين.

* * *

ورغب بتلر فى أن يعود كل شىء إلى طبيعته فعلا.. فتدخل لبيع الورشة لصالح ميلانى وآشلى واستطاع أن يقنع جميع الأطراف بذلك ـ سكارليت وميلانى وآشلى ـ وبات بتلر يعود إلى المنزل فى ساعة مبكرة وراح يعامل الجميع بود ولطف ومن جديد ابتعد عن أصدقاء السوء واستبدلهم بدكتور ميد، وهوج، والعم هنرى.

وعاشت سكارليت فترة هدوء.. وأصبح بتلر أكثر أهل أتلانتا حبا وتقديرا من الجميع.

وكان بتلر مع بونى فى الحديقة ـ التى أتمت عامها الرابع منذ أسبوع ـ وهى تركب مهرها.. وكانت الصغيرة كثيرة الطلبات صعبة المراس، وقالت فى هذا اليوم:

ـ أستطيع القفز من فوق حاجز أكبر.

فضحك بتلر وهو يقول:

ـ وهو كذلك.. أرينا مهارتك.

وقام بتلر بوضع حاجز إضافى فى الوقت الذى نظرت فيه بونى إلى سكارليت التى تطل من نافذة غرفة النوم وقالت لها:

ـ ماما.. والدى يقول إنى أستطيع قفز حاجز أكبر.

ـ أنا أشاهدك يا عزيزتى.

ونظرت لها سكارليت بسعادة وهى ترى فيها والدها ـ جيرالد ـ وفجأة صاحت:

ـ بونى لا.. لا تقفزى.

ولكن بونى كانت قد انطلقت.. وهرعت سكارليت إلى الباب.. وقبل أن تجتازه سمعت صوت تحطم الحاجز وصراخ بتلر الملتاع.

الفصل الثانى عشر

وتلاحقت المصائب.. فبعد شهرين مرضت ميلانى مرض موت بعد أن حملت وأجهضت.. وذهبت سكارليت لرؤيتها، وكانت هناك آشلى والعمة بيتى وإنديا.

وما إن رآها آشلى حتى تقدم منها ووضع يده على ذراعها وقال:

ـ لقد سألتْ عنك.. دكتور ميد معها الآن.. وأنا سعيد لقدومك يا سكارليت.

ـ هل هى بخير.. أوه لا تقل لى إنها ســـ....

وعرفت من عينيه الإجابة.. وخرج دكتور ميد وما إن رأى ميد حتى قال:

ـ أخيرا وصلتِ.. ميلانى تريد رؤيتك.

وقبل أن تدخل سكارليت وضع دكتور ميد يده على كتفها وقال:

ـ كونى هادئة.. ليس وقت اعترافات وإلا أقسم إنى سأبتر رأسك.

وأومأت إيجابا.. ودخلت.. ورأت ميلانى ممدة على فراشها.. ضعيفة

هزيلة شاحبة باسمة بصعوبة.. وكانت تأمل أن يكون دكتور ميد مخطئا بشأن حالتها ولكنها الآن تيقنت أنها النهاية.

- سكارليت.. عدينى.

فأمسكت يدها برفق وقالت:

- اطلبى أى شىء.

- اعتنى بولدى.

- لا تقولى هذا يا ميلانى فلن يعتنى به أحد غيرك.

- فقط عدينى.

- أعدك يا ميلانى.

- أريده أن يذهب إلى الجامعة وأوربا ودورس الموسيقى.. حققى له كل رغباته.

- سأفعل.

- وآشلى أيضا.

وخفق قلب سكارليت.. وشعرت بخزى كبير وندم أكبر على أنها فكرت فى زوج المرأة التى أمامها.. وتضرعت فى نفسها أن ألا تموت ميلانى لتكفر عن خطاياها.. ستحب ميلانى.. ستحبها من قلبها كما لم تفعل من قبل.

- اعتنى به يا سكارليت.. إنه لا يهتم بصحته.. وأيضا لا يهتم بعمله.. أنت تفهميننى جيدا.. ولكن لا تدعيه يعلم بمساعدتك.

- أفهمك.. وسأفعل.

- أوه يا سكارليت كم أنت ذكية وكريمة وكنت فى غاية الكرم معنا.

ولم تستطع سكارليت أن تكبح نفسها أكثر من ذلك فانفجرت فى البكاء وهى تقول:

- لقد كنت شيطانة لعينة وأسأت إليك كثيرا وكل ما فعلته كان من أجل آشلى.

وهبت واقفة وعضت أناملها، وتذكرت كلمات ريت: "إنها تحبك".. ودخل دكتور ميد ليعلن انتهاء الوقت المخصص لها.. فانحنت سكارليت عليها وتناولت يد ميلانى ووضعتها على خدها المبلل بالدموع، وهمست ميلانى:

- عدينى.

ونظرت لها سكارليت فأردفت ميلانى:

- كونى لطيفة مع الكابتن بتلر.. إنه يحبك كثيرا ويجب أن تحبيه أيضا.

وطبعت سكارليت قبلة على يدها، وأعادتها برفق إلى جوارها.. وغادرت.. ودخلت باقى السيدات.. وتساندت سكارليت على الحائط الذى خلفه ميلانى تودع الدنيا.. وبحثت عن آشلى بعينيها.. وجدته فى الصالة.. جالسا منحنيا كسيرا.. واندفعت إليه وهى تقول:

- آشلى أمسكنى فأنا خائفة بشدة.

ـ وأنا لا أقل عنك خوفا.

ـ ولكنى عهدتك دوما قويا.

ـ إذا كانت قويا فى وقت ما فهذا بسبب أنها كانت ورائى.. إنها حلمى الوحيد.. وها هو يتلاشى.

ـ لقد كنا أغبياء يا آشلى.. كان يجب أن تدرك أنها أعظم النساء وأنها حبك الحقيقى ولكنك أدركت هذا فى اللحظات الأخيرة.

وفُتح باب الغرفة دفعة واحدة وقال دكتور ميد:

ـ آشلى.. بسرعة.

وصاحت سكارليت:

ـ يا إلهى.

* * *

وعادت إلى المنزل مسرعة.. أخيرا اكتشفت أن ريت هو حبها الحقيقى.. ستصارحه وسيتفهم كل شىء.. وشعرت براحة شديدة وهى تصل إلى هذه النقطة.. وشعرت بثقة وزال من داخلها كل خوف من أى شىء فى الدنيا.. كم كانت غبية لتريد القمر الذى لا فائدة منه.

واندفعت من الباب.. واندفعت إلى القاعة.. ووجدته جالسا على الطاولة.. هادئا.. خرج من غيبوبة وفاة ابنته لتوه.. وما إن نظرت إليه حتى سرت فى جسدها رعشة وهى تشعر بإحساس مبهم ألجم لسانها.. وقال بتلر بهدوء:

ـ اجلسى.. هل توفيت؟

ـ أوه ياريت لقد كان هذا رهيبا وكنت فى أمس الحاجة إليك.

ـ لقد كانت سيدة عظيمة.. ومع هذا أعتقد أن الوضع الآن أفضل لك.

ـ ريت كيف تقول هذا الكلام.. أنت تعلم كم كنت أحبها.

ـ حقا؟!

كان يتحدث ساخرا ولكن بلا حياة.. وقالت سكارليت:

ـ إنها أكرم من رأيت.. تفكر فى الجميع وتنسى نفسها.. وكانت آخر كلماتها عنك.. وطلبت منى الاعتناء بابنها وآشلى.

ولم يعقب لوهلة.. وأطلق ضحكة شاحبة وهو يقول:

ـ جميل أن تحصلى على إذن من الزوجة.

ـ ماذا تقصد يا ريت؟

ـ أقصد ما تفهمين.. والآن السيدة ميلانى توفيت وصار لديك الدافع لطلب الطلاق.. ليس بينك وبين حلم حياتك سوى خطوة واحدة.

فصاحت:

ـ الطلاق..كلا.. كلا!

واندفعت إليه وأمسكت بيديه.. وتابعت:

ـ لا أريد الطلاق.. إننى...

وتوقفت عندما لم تجد ما تعبر به.. وزالت سخريته وراح ينظر إليها برفق.. وأخيرا اندفعت قائلة:

- ريت لقد جئت جريا لأقول لك.. لأقول.. أوه يا حبيبى أنا...

- أنت مرهقة ويجب أن تأخذى قسطا من النوم.

- ريت يجب أن أخبرك...

- لا مزيد من الكلام يا صغيرتى.. أستطيع أن أرى ما بداخلك بسهولة ولطالما فعلت.

وشهقت دهشة.. ما قاله صحيح وطالما كان مطلعا على ما بداخلها، وقالت بانفعال:

- ريت لكم أحبك.. منذ سنوات طويلة وأنا أحبك ولكنى فقط كنت غبية لكنى لا أدرك ذلك.

- أصدقك يا عزيزتى.. ولو سمعت هذا الكلام من قبل لتوقفت عن التنفس لأستمع إليك.. ولكن ما عاد شىء يهم.

- ريت!

- حتى الحب يا سكارليت يمكن له أن ينتهى.. عندما تزوجتك كنت أعلم أنك لا تحبيننى وكنت أعلم مشاعرك تجاه آشلى.. ولكنى كنت أحمق حين توهمت أنى قادر على نزعه من رأسك.. ولو كنت حصلت على حبك من البداية لكنت فى المقابل أعطيتك ألطف وأرق وأقوى عشق يمكن لرجل أن يعطيه لامرأة.. ولكنى لم أجعلك تعرفين

هذه الحقيقة حتى لا تظنيها ضعفا.. ولم يكن حبى لبونى إلا صورة لحبى لك.. فلقد كانت مثلك عنيدة شجاعة أنانية ولكن الفرق أنها أحبتنى فشعرت بسعادة كبيرة وأنا أعطيتها كل ما بداخلى.. ولكنها رحلت وأخذت معها كل شىء.

ـ سأعوضك.. سأعوضك عن كل شىء.

ـ لم أعد راغبا فى شىء وليس لدى الاستعداد للمغامرة بقلبى من جديد.. كم هو عمرك الآن يا عزيزتى.

ـ ثمانية وعشرون.

ـ أمامك الكثير لتبدأى من جديد.

وشعرت سكارليت بذعر وهى ترى ريت يروح منها فى الوقت الذى وجدته.. إنها مثل آشلى عرفت الحقيقة فى النهاية.

ـ إذًا فلم تعد تحبنى؟!

ـ هذا صحيح.

ـ ولكنى أحبك.

ـ هذا من سوء حظك..

وصمت لحظة.. وأردف:

ـ سكارليت.. سأرحل.

فقالت بلوعة:

ـ هل ستهجرنى.. إلى أين ستذهب؟

- إنجلترا.. باريس.. وربما إلى تشارلستون لأتصالح مع عائلى.

- ولكن قلت إنك لا تحبهم.

- ولا أزال.. ولكنى بلغت النهاية.. أنا فى الخامسة والأربعين وهو العمر الذى يجب للإنسان فيه أن يعيد حساباته وينظر إلى ما ألقاه خلف ظهره.

- إنها الأشياء نفسها التى كان آشلى يقولها عن الأيام الماضية.

- آشلى دوما.

وغادر الغرفة دون مزيد كلام.. ونظرت إليه وهى تعرف أنها المرة الأخيرة التى تراه.. لا.. لا يمكن أن تفقده.. قد تموت أو تجن.. ستفكر فى هذا غدا.. لا بد من البحث عن حل.. لا بد أن هناك حلا.

وبرقت عيناها.. تارا.. ستعود إلى تارا.. إلى مامى.. إلى الأرض الحمراء..

ورفعت رأسها بالشموخ الأيرلندى.. ستسترد ريت.. إنها واثقة من ذلك..

- غدا.. فى تارا.. سأفكر فى طريقة لأسترجعه بها.. فغدا يوم آخر.

20 روايتى





صدر من سلسلة روايتى

1 - أحدب نوتردام - فيكتور هوجو
2 - البؤساء - فيكتور هوجو
3 - الهوان - ألبرتو مورافيا
4 - امرأة من روما - ألبرتو مورافيا
5 - قصة مدينتين - تشارلز ديكنز
6 - أوليفر تويست - تشارلز ديكنز
7 - العجوز والبحر - أرنست هيمنجوى
8 - ديفيد كوبرفيلد - تشارلز ديكنز
9 - الجميلة والعجوز - فلاديمير نابوكوف
10 - الأرض الطيبة - بيرل بيك
11 - آناكارنينا - ليوتولستوى
12 - الأخوة كرامازوف - دستوفيسكى
13 - الأمال الكب[illegible] [illegible]يكنز
14 - للعبيد ضمير [illegible] [illegible]ستوى
15 - عشيق الليدى [illegible] [illegible]. لورنس
16 - ترنيمة عيد ا[illegible] [illegible]لز ديكنز
17 - الحـ[illegible] [illegible]ل زولا
18 - دكتور جيكل و[illegible] [illegible]يفنسون
19 - أوقات عصيبة - تشارلز ديـ[illegible]

مكتبة النافذة